

تاريخ النصيرين

رينيه دوستو

نقله إلى العربية السفير آصف ناصر

المحتويات

كلمة حق لا بد منها	٥
مقدمة الترجمة	٩
تمهيد	٣٧
ملاحظة	٣٩
القسم الأول: موطن النصيريين – أصلهم	٤٧
الفصل الأول: موطن النصيريين	٤٩
الموقع الجغرافي	٤٩
التوزع السكاني وتنوعه	٥٥
الثروة الزراعية والحيوانية	٦٤
الكثافة السكانية وانتشارها	٦٩
الفصل الثاني: أصل النصيريين	٧٣
الآراء الرائجة والفرضيات المتداولة	٧٣
نظرية بلين Pline	٨٧
نظرية شانتير Chantre (الأنثروبولوجية) والتعليق عليها	٩٢
نقد نظرية شانتير	٩٣
المناطق والقلاع والأطلال التي أشير إليها في القسم الأول ...	٩٥
القسم الثاني: النصيريون منذ الحقبة الرومانية حتى فتوى ابن تيمية	١١٣
الفصل الأول: النصيريون منذ الحقبة الرومانية حتى الحروب الصليبية	١١٥
في بداية انتشار المسيحية	١١٥
الحرب الصليبية الأولى	١٢٣
الفصل الثاني: النصيريون منذ نهاية الحروب الصليبية حتى فتوى ابن تيمية	١٢٨

١٢٨	 مرحلة صلاح الدين الأيوبي
١٢٩	 مرحلة النزاعات الإسماعيلية - النصيرية
١٤٠	 فتوى ابن تيمية
١٤٧	 المناطق والقلاع والأطلال التي أشير إليها في القسم الثاني
١٧٧	 القسم الثالث: النصيريون منذ نهاية القرن الثامن عشر
١٧٧	 حتى أيامنا
١٧٩	 الفصل الأول: النصيريون في القرن التاسع عشر
١٧٩	 مرحلة العشائر
١٨٦	 الفصل الثاني: ظاهرة اسماعيل خيربك (مشير الجبل)
١٨٦	 بروز اسماعيل خيربك
١٨٧	 تعيين اسماعيل خيربك حاكمًا على منطقة صافيتا
١٩٠	 الأقاليم الشعبية المروية عن اسماعيل خيربك
١٩٤	 نهاية اسماعيل خيربك
١٩٦	 الفصل الثالث: النصيريون في نهاية القرن التاسع عشر
٢٠١	 صور المناطق والقلاع التي ورد ذكرها في القسم الثالث
٢٠٥	 أهم المراجع
٢٠٥	 أولاً: المراجع الأجنبية
٢١٥	 ثانياً: المراجع العربية

كلمة حق لا بد منها

عندما قرأت ترجمة كتاب:

"Histoire des nosairis" par René Dussaud

"تاريخ النصيريين" لرينية دوسو، ظننت أن المؤلف صاغه بالعربية فلم أعر على أية إشارة تشي بأن الكتاب الذي بين يدي منقول من لغة أخرى لجزالة اللغة ومثانة التركيب؛ وعندما تمعنت في محتواه فوجئت بما جاء فيه من حقائق جديدة حتى تراءى لي أن هذا الكتاب صادر حديثاً مع أنه صدر في مطلع العام ١٩٠٠، وقد نُشرت بعده كتب عديدة تناولت الموضوع ذاته، واعتمدت عليه كمرجع، ولكنها أغفلت ذكر أهم ما تفرّد به.

ما تتميز به الترجمة أنها حولت السرد التاريخي الذي كتبه "دوسو" إلى كيان حي لأحداث وكأنها تدور أمامنا، فكشف حقائق لم نكن نعلمها، من أهمها أن تسمية هذه الجماعة لم تكن مرتبطة بشخص كما تم تداوله عبر عقود، بل أنها تعود لانتماء جغرافي يرجع تاريخه إلى ما قبل الميلاد، حين راجت المعتقدات "السورية – الفينيقية"

فيذكر "دوسو" ما أقره المؤرخ اللاتيني "بليين القديم" وأيده بعد أربعة قرون المؤرخ الإغريقي "سوزومان".

قد يميل البعض إلى اعتبار ما ذكره "دوسو" ضرباً من التشكيك في الأصول العربية للمنطقة، وهذا ما كان رائجاً في خمسينيات القرن الماضي، خاصة في ما كان يتعلق بآراء المستشرقين، وقد يكون هذا التشكيك في محله، لو أن هذا الرأي صادر عن "دوسو" شخصياً ولكن حين يكون سرد هذه الوقائع صادراً في القرن الأول الميلادي (مع بليين) وفي القرن الرابع (مع سوزومان) فلا يعود للتشكيك أية قيمة منطقية.

هذا الجديد في الكتاب يحملنا على الاعتقاد مع "دوسو" بأن النصيريين من بقايا الفينيقيين بتشبههم بأرضهم ومحافظتهم على تراثهم، وبعد أن يستعرض ما جاء في فتوى ابن تيمية من اتهام النصيريين بأنهم فتحوا الثغور للصليبيين ليجتاحوا الساحل السوري، يفند "دوسو" هذا الاتهام ويستشهد بما قاله الراهب الصليبي "بورشارد دو مون سيون" عنهم من أنهم "قوم أشرار ومعادون للمسيحيين" ومن الطبيعي أن عبارة "معادون للمسيحيين" بالنسبة إلى الراهب "بورشارد دو مون سيون" تعني أنهم

معاونون للصليبيين، وهذا ما لم يرد سابقًا عند أحد من الذين كتبوا في هذا الموضوع.

بقيت نقطة أخيرة أود أن أذكرها وهي إثراء الترجمة بالشواهد التي بذل السفير ناصر جهده ليعزز عمله بها ويجعل من الكتاب قطعة فنية تريح القراء وتبلور الوقائع وتفتح أمامهم آفاقًا جديدة ليتعرفوا إلى حضارة تعود إلى آلاف السنين، فباستعراض المناطق التي ذكرها "دوسو" وردت صور لبعض القرى ومنها "جبل الأعلى" وفيها آثار رائعة وبلدة "الروج" الخصبة وقرية "مريمين" التي تحتوي على لوحة تعود لألفي سنة قبل الميلاد وتظهر فيها نساء يعزفن على الأرغن والقيثارة.

لا بدّ لي في نهاية هذه المقدمة من تهنئة صديقي السفير آصف ناصر على هذا العمل الجديد والذي اعتبره بحق ابتكارًا في مجال الترجمة

السفير فريد سماحة



مقدمة الترجمة

يأتي كتاب "رينيه دوسو René Dussaud" :

"تاريخ النصيريين وديانتهم Histoire et Religion des Nosairis" في طليعة الكتب التي تناولت هذه الطائفة في بداية القرن العشرين؛ ولا نبالغ إذا قلنا بأن أكثر الأبحاث المنشورة التي تناولت هذه الجماعة، في ما بعد، قد اعتمدت هذا الكتاب مرجعاً أساساً ولكن بصورة استتسابية، فكان من المفيد، لمن ينشد الدقة في هذا الموضوع، الاطلاع عليه مباشرة من مصدره الأصلي ومعرفة ما جاء فيه؛ من هنا نشأت الرغبة عندي في نقله إلى اللغة العربية.

ينقسم الكتاب إلى قسمين، الأول يستعرض تاريخ هذه الجماعة والثاني يبحث في معتقدها كما فهمه المؤلف اعتماداً على المصادر التي وجدها، ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ جميع الذين تناولوا هذه الطائفة استقوا أكثر معلوماتهم من الباكورة السليمانية التي عرضها سليمان أفندي الأدناوي (أو الأدني)، وهو شخص من أضنة كان في بداية حياته أحد أفراد هذه الطائفة فخرج منها لينتمي إلى طائفة أخرى، ثم بدّل انتماءه الجديد بآخر وبعدها حاول العودة إلى أصله فقتل، وأُلقيت تهمة قتله على النصيريين؛ وأشيع أن جريمة

الاغتيال وقعت كردّة فعل على ما اقترفه، ولكن أيّا كانت الظروف التي رافقت هذا الحادث، فإنّ التصفية الجسديّة أمر لا يقرّه المنطق العلمي ولا الحضاري ولا الديني.

وحيث عازمت على ترجمة هذا النتاج، قرّرت أن أعرب ما كتبه "دوسو" عن وقائع تاريخية ثابتة لا مجال للجدال في صحتّها، فأثرت ألاّ أتعرض للقسم الثاني أي الشقّ الديني، مكتفيًا بما كشفه "دوسو" في مجال التاريخ؛ لاسيما أنه اعتمد، في كتابة الأخبار والأحداث التي أوردها، على مجموعة ضخمة من المراجع المتنوّعة ومتعدّدة اللغات والمصادر، فلم يوقّر في سردها أيّ تفصيل مهما بلغت قيمته العلميّة، ولم يهمل حتى الخرافات والأساطير التي يتناولها العوام.

عندما قرأت تاريخ "دوسو" تبيّنت أنّ صاحبه وضعه بشكل تداخلت فيه الأحداث بطريقة سرديّة استطراديّة قد يتعذّر على القارئ معها استيعابها في سياقها التاريخي، لذلك عمدت إلى تبويب الترجمة فقسمتها إلى أقسام وفصول مع مراعاة ترتيبها كما وردت عند مؤلّفها تمامًا، من دون أن أتدخل بتفاصيلها، وأرفقت التعريب بالنص الأصلي الفرنسي كما نشره "دوسو" حرفيًا حرصًا على أمانة

الترجمة ودقّتها، حتى أنّ بعض الأصدقاء أخذوا عليّ أنّ بعض التفاصيل، أو بعض الهوامش لم يكن من الضروري التقيّد بإيرادها ولكنني فضّلت المحافظة على كل ما جاء في الكتاب.

تم تقسيم الترجمة إلى ثلاثة أقسام يتناول القسم الأول موطن النصيريين وأصلهم، ويعرض القسم الثاني حالتهم منذ الحقبة الرومانية حتى نهاية القرن الثامن عشر، والقسم الثالث من بداية القرن التاسع عشر حتى أيامنا، (Jusqu'à nos jours) أي زمن صدور الكتاب عام ١٩٠٠.

سأتابع في هذه المقدمة العرض التحليلي لمحتوى الترجمة مع بعض الملاحظات التي دوّنتها.

في القسم الأوّل خُصّص الفصل الأول لموطن النصيريين، والثاني لأصلهم؛ وإذ وردت بعض العبارات التي لم يوضحها "دوسو" بشكل كاف، فقد تجاوزت الاكتفاء بإيرادها إلى إيضاح مرماها مستخدمًا الهوامش، مع الإشارة بعلامة (*) لتنبية القارئ، وأرفقتها بـ(المترجم) للدلالة أن هذا كلام المترجم؛ وكمثال على ذلك يذكر المؤلف اسم منطقة صهيون بلا تعيين لموقعها، ثم النهر الكبير الشمالي

من دون أن يذكر أي تفصيل عنه وبعد ذلك يذكر النهر العاصي، فلم اكتف بإيراد هذه الأسماء كما وردت في النص الفرنسي، بل أوضحت في الهامش موقع صهيون، ومنبع النهر الشمالي ومسار نهر العاصي. ثم وضعت عناوين فرعية لمقاطع أخرى من شأنها أن تفيد القارئ في فهم المقطع وفحواه.

يعرض المؤلف في تفصيله عن موطن النصيريين، الموقع الجغرافي فيضعه في إطاره الطبيعي بحدوده المعروفة ولكنه يذكر النهر الكبير فاضطرت لإضافة كلمة (الجنوبي) لأن هناك نهريين يحملان هذا الاسم هما النهر الكبير الجنوبي، وهو الحد الفاصل بين لبنان وسوريا، والآخر هو النهر الكبير الشمالي الذي ينبع من سفوح جبال اللاذقية؛ ثم يذكر اسمين للنصيريين أحدهما الاسم المعروف والآخر "الأنصارية" ويسهب في الهوامش بشرح السبب اللساني للفرق؛ بعد ذلك يتعرّض للانتشار السكاني وتنوّعه، لاسيما وجود نصيريين في مناطق أخرى بعيدة عن هذا الموقع: كـ"عين فيت وزعورا والغجر"، ثم يعرّج على المناخ والثروة الزراعية والحيوانية، ويصف بشكل خاص تقنية تحضير التبغ والنبذ.

بالنسبة إلى الكثافة السكانية يشكك "دوسو" بالأرقام الرسمية المتداولة، ويذكر الحالة البائسة التي كانت مفروضة على هذه الجماعة.

تتجلى موضوعية المؤلف بالفصل الثاني في بحثه في أصل النصيريين، فيتوسّع في استعراض بعض الآراء الراجحة وفي تحليلها والتعليق عليها سلّبا وإيجاباً.

شاعت أقاويل كثيرة حول تسمية النصيريين، منها ما يعتبرهم نتاج تلاقح بين السكان الأصليين والإفرنج خلال الحملات الصليبية؛ دحض "دوسو" هذه النظرية بالوقائع، ثم عرض فرضيتين إحداهما تقول بأن كلمة نصيري مشتقة من كلمة نصراني وأنها صيغة تصغير لها - ومصدر هذا الطرح هو المفكر الفرنسي إرنست رينان - وأثبت أيضاً سقوط هذه الفرضية، بعد ذلك شرح رأي "Stanislas-Guyard ستانيسلاس غويارد" القائل بنسبة هذا الاسم إلى محمد بن نصير الذي كان من أنصار الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية.

لم يترك "دوسو" في هذا الشأن أية رواية وصلت إليه إلا ذكرها، ولو كانت خرافية شعبية (كحكاية نصير وزير معاوية المزعوم) أو خبر نصير مولى الإمام علي بن

أبي طالب، أو قصة زاهد "نصاريا" التي ذكرها مطران حلب أبو الفرج.

بيد أنه لاحظ الخبر الذي يربط كلمة النصيريين بالأنصار، وهذا خبر، على غرابته، قابل للبحث؛ فمن المعلوم أنّ الأنصار كانوا من أصحاب الإمام علي، وقد هجّاهم الأخطل في زمن معاوية بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

فذرّوا المعالي لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار

فليس مستغرباً أن يُلجأ إلى تصغير نصير للتحقير، وهو مفرد أنصار، فيصبح نصير. لكنّ "دوسو" لم يتوقف عند هذا الأمر.

لم يستبعد "دوسو" الاحتمال الذي أورده "غويار" ولكنه لم يكتف به، بل أخذ بعين الاعتبار تاريخ المنطقة الحضاري وتوغل في أعماق التاريخ القديم مع المؤرّخ اللاتيني "Plin l'Ancien - بلين القديم" (٢٣م - ٧٩م) وقرأ في كتابه "التاريخ الطبيعي" حيث يستعرض المدن والقرى التي زارها، وفي تعيينه المدن في (سوريا المجوّفة) يذكر "أفاميا" التي يفصلها نهر العاصي (Marsyas) عن ولاية "Nazerini نازيريني"؛ ويردف قائلاً : "ولا يمكن

تعيين أدق لإقليم النصيريين من الذي يحمل نازيريني اسمه،
ويضيف في الهامش ٤ من الصفحة عينها: "إن ما سجّله
بلين ممتاز. ينتج منه المثل الموازي تمامًا لنصراني = نسبة
إلى الناصرة."

وهكذا يضعنا "دوسو" أمام طرح جديد فلم يعد اسم
نصيري متعلقًا بشخص بل يرجع إلى نسبة اقليمية سابقة
بزمن بعيد على محمد بن نصير، بل سابقة على الوجود
المسيحي في المنطقة، ويضيف أنّ هذا الاسم لا يدل على
اسم فرقة اسلامية ما، بل على شعب يعيدنا أول تنويه
تاريخي باسمه إلى بداية التاريخ الميلادي، إلى حقبة زمنية
كانت المعتقدات "السورية - الفينيقيّة Syro-phénicienne"
خلالها في أوج ازدهارها.

هذه الإشكالية التي طرحها "دوسو" باعتبار تسمية
"نصيريين" عائدة لشعب يشغل إقليمًا ومنه استمد اسمه، لن
تجد لها حلا في هذه الترجمة، لأننا نطرح فيها ما قاله
"دوسو" بنفسه، ولكنّه في هذه الطروحات التي ساقها يفتح
نافذة لإيجاد حل، ربّما في كتاب آخر، يكون فيه المؤلف
حرًا بإيراد الأفكار التي يراها مناسبة.

بعد هذا العرض، يورد "دوسو" النظرية الأنثروبولوجية التي جاء بها "ارنست شانتر Ernest Chantre" والذي حاول أن يحدّد موضع النصيريين فتوصل إلى إقرار سمات خاصة بهم من حيث الطول وشكل الرأس وقوة البنية، لكنه نقض هذه النظرية ولم يأخذ بها معللاً رفضه بحجج علمية.

في القسم الثاني يعرض المؤلف حالة النصيريين منذ الحقبة الرومانية حتى نهاية القرن الثامن عشر، فتتقسم هذه الحقبة إلى مرحلتين الأولى يتناول فيها وضعهم من الحقبة الرومانية حتى الحروب الصليبية (الفصل الأول)، والثانية منذ نهاية الحروب الصليبية حتى فتوى ابن تيمية التي تسببت بتعرّضهم للإبادة (الفصل الثاني).

يبدو من قراءة الفصل الأول، أنّ النظرية التي قال بها "بليين" كانت بمثابة واقع تاريخي ثابت أخذ بها "دوسو" وبنى آراءه على أساسها معتمداً على وفرة غزيرة من المراجع.

فالأباطرة الرومان منحوا معبد "بوتوسيبي"¹ اعفاءات سمحت ببقاء ممارسة المعتقدات "السورية" –

¹ – أصبح اسمه في القرن العشرين "حصن سليمان"

الفينيقيّة" داخل حرم هذا المعبد بإجلال في القرن الرابع (م)، بل يستشهد بالمؤرّخ الإغريقي المسيحي "سوزومان" في قوله إنّ النصيريين نزلوا من جبالهم في أواخر القرن الرابع لنجدة وثنّيي أفاميا في نضالهم ضد المسيحيين.

يذكر "دوسو" أن انتصار المسيحية في سوريا لم يتم من دون مقاومة عنيفة، فاستمرّت الوثنيّة حتى مرحلة متقدّمة من القرون الوسطى، وكان النصيريون آنذاك في جبالهم في مأمن من الاضطهادات، إلا القرى المتاخمة للسّهل التي لم تتمكّن من مقاومة الاجتياح، ودليل "دوسو" على ذلك هو الغياب الكامل في تلك الجبال للكنائس المقامة على الطراز الذي كان سائدًا في القرون الخامس، والسادس، والسابع.

في هذا السياق يبدو أنّ هناك خلافًا في تصوّر بين "دوسو" والأب "لامنس" اليسوعي الذي يذكر في مقالته "النصيريون"، المقتطفة من مجلة "دراسات دينية" عام ١٨٩٩، أنّه فوجيء بوفرة الآثار المسيحية.

يعلل "دوسو" ذلك بقوله إنّ الأب لامنس لم يمرّ إلا بالمنطقة الجنوبيّة، محيط صافيتا، أي البقعة التي كان يحتلها البيزنطيون والصليبيون.

يشير "دوسو" إلى منطقة أخرى هي حرّان حيث بقيت الوثنية أيضًا لزمان أطول مما كانت عليه عند النصيريين، ويوجز الفترة البيزنطية بعبارة واحدة وهي "أن الحقبة البيزنطية لم تقدّم لنا أية معلومة مفيدة عن النصيريين سوى أنهم لم يعتنقوا المسيحية.

بمقارنة الفكرتين اللتين وردتا في المقطع السابق نلمس أن "دوسو" غاب عنه تحديد انتماء النصيريين الديني بعد انتصار المسيحية، فعندما يقول إنّ سكان حرّان بقوا وثنيين لمدة أطول من النصيريين، يستفاد من هذا القول أنّ النصيريين تحوّلوا من الوثنية إلى المسيحية قبل أهل حرّان، وهذا لا ينسجم مع استنتاجه المتعلق بالفترة البيزنطية، لا سيما وأنّ في الجبل آثارًا توحى بعكس ذلك؛ فالمنطقة الواقعة في الجبل في المقلب الذي يؤدي إلى المنطقة الوسطى^١، تضمّ قرى يبدو من أسمائها نكهة مسيحية، منها قرية الكنائس (تقع فوق أبي قبيس) وقرية دير ماما (بالقرب من مصياف ومن المعلوم أنّ ماما هو اسم لأحد القديسين المسيحيين).

^١ - تضم المنطقة الوسطى حمص وحماه

من المرجح أنّ "دوسو" عندما ركّز على عدم اعتناق النصيريين للمسيحية، إنّما كان يحاول أن يدفع نظرية "رينان" باشتقاق كلمة نصيري من نصراني.

في معرض كلامه على الحروب الصليبية يقول "... إن النصوص التي تناولت هذه المناطق القوية لم تفصح شيئاً عن النصيريين فكان لا بدّ لنا من أن نصل في تعقّبنا إلى نهاية القرن الحادي عشر لنجد ذكرهم في رواية عن الحملة الصليبية الأولى" إلى أن يقول "...ومن هناك، أي المعرّة، زحفوا إلى جبل لبنان حيث قتلوا عدداً كبيراً من الناس المدعوين نصيريين^١. ويتابع "...[...] كان يقود ذلك الفيلق "الكونت دو سانت جيل" "Le Comte de Saint- Gilles" [...] تصدّى النصيريون بشراسة لزحف ذلك الجيش لإيقافه، وقد وصفهم بورشارد دو مون سيون Burchard de Mont – Sion بقوله "إنهم قوم أشداء وأشرار ومعادون للمسيحيين"، ومعنى ذلك، بالنسبة إليه أنهم معادون للصليبيين، فهم قاوموا الغزاة الصليبيين بضراوة، ولكنهم لم يستطيعوا صدّهم.

^١ - هذا يعني أن النصيريين كانوا في جبل لبنان منذ ١٠٠٠ عام أو أكثر

لم يحدّد "دوسو" هوية النصيريين الدينية في هذه المرحلة، ولكنه في عرضه للوضع أيام صلاح الدين، وبعد أن يمرّ على حركات الإسماعليين، يذكر غزوات الإسماعليين على مناطق النصيريين بقيادة رشيد الدين سنان "شيخ الجبل" واحتلالهم لبعض القرى، ويروي قصة ذلك النصيري الذي انتحل صفة المهدي والكارثة التي حلت بهم من جرّاء ذلك، ويعود فيستشهد على هذه القصة بما رواه "المقريزي"^١.

نستنتج من هذه الرواية أنّ النصيريين كانوا في تلك المرحلة اثنا عشرين لإيمانهم بالمهدي ولكن "دوسو" فاته أن يلاحظ هذا الأمر.

ولعلّ الاضطرابات التي حصلت بين النصيريين والإسماعليين تجد أساسها في الخلاف حول سلسلة الأئمة عند الطائفتين.

يعرّج "دوسو" بعد ذلك إلى تاريخ الإسماعليين الذين استحوذوا على قدر كبير من الأهمية في نظر الفرنجة لقوّتهم الهائلة التي كانت تهدّد العالم الإسلامي، والتي تبدّدت

^١ - المقريزي "كتاب السلوك" ص ١٧٨-١٧٩

في القرن الثالث عشر أيام الظاهر بيبرس الذي قضى عليهم في سوريا بعد أن دمرهم المغول في بلاد فارس.

نصل الآن مع "دوسو" إلى عرضه لفتوى ابن تيمية "التي تظهر مدى القلق الذي غاص فيه التشدد الإسلامي المنتصر حيال البدع النصيرية" فانبرى ابن تيمية بفتواه الشهيرة التي تحرّم أكل ذبائحهم والزواج منهم فـ"هؤلاء القوم المسمّون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة أكفر من اليهود والنصارى... بل أكفر من المشركين الوثنيين... [....] وإذا سقطت السواحل السورية في قبضة الإفرنج، [....] فمردّ ذلك أنّهم كأعداء الدّاء للمسلمين كانوا مع النصارى على المسلمين".

هذه خلاصة فتوى ابن تيمية التي عالجها "دوسو" بموضوعيّة علميّة منطقيّة، كان له السبق في التعليق عليها. ولا بأس من تكرار ردّه عليها لأنّ فعلها كان ذا أثر بالغ على المسلمين عبر التاريخ، إذ لم نجد أحدًا قبله تناولها منطقيًا، فكل ما قيل سابقًا هو من باب محاربة ابن تيمية وكان له خصوم كثير، فيقول "دوسو" في التعليق على ما جاء في الفتوى:

"من المؤكّد أنّ هذا الشرح غير صحيح وأنّ الشكل المخاتل الذي قدّم فيه يدلّ على أنّ الاتّهام صادر عن سوء

نّية. فقد رأينا أنّ الصليبيين الأوائل فُرض عليهم صراع شرّس ليفتحوا ممرًا في جبل النصيرية. ولم يلمح أي مؤرّخ من الإفرنج بمساعدة ذات قيمة كان النصيريون ليقدموها للصليبيين. إنّ شهادة بورشارد دومون سيون Burchard de Mont Sion فيهم قاطعة: (Gens effera et maliciosa et Christianis infesta قوم أشداء وأشرار ومعادون للمسيحيين) وعبارة "معادون للمسيحيين" تعني، بالنسبة إلى Burchard de Mont Sion "معادين للصليبيين" كما ذكرنا سابقًا.

يختم "دوسو" كلامه في فتوى ابن تيمية بالخلاصة التالية: "لم يتمكّن المتعصبون، الذين وجدوا في ابن تيمية سندًا شرعيًا، من تحقيق مقاصدهم. فالنصيريون لم يكونوا متطفلين مطلقًا، ولا لاجئين يمكن طردهم، أو استيعابهم ودمجهم، ولا تدميرهم. إنّهم السكّان الأصليون وفائدتهم عظيمة للمسلمين، وهم الوحيدون الذين يجيدون العمل في المنطقة. وبعد أن تخلصوا من الإسماعيليين، الذين انحصر وجود من بقي منهم في القدموس ومصيف، عاشوا حياة مستقلة، الحياة العشائرية كما وجدناهم عليها في بداية هذا القرن".

بعد شرحه لفتوى ابن تيمية وتعليقه عليها، يتابع "دوسو" تاريخه، متجاوزاً الحوادث التي حصلت في أثناء الحملة على كسروان التي شنها "أقوش الأفرم" والتي ربما يعتبر أنها لم تأت بجديد، وينتقل مباشرة إلى القرن التاسع عشر ليبدأ بدراسة أوضاع المجتمع النصيري بتركيبه العشائري، وهنا يحسن تسجيل ملاحظة حول خطأ حصل عند المؤلف بالتصنيف العشائري، فهو يدرج "بيت شمسين" في فروع عشيرة الرسالة بينما ينتمي هذا الفرع إلى عشيرة الحدادين ويضع "القراحلة" في فروع عشيرة الحدادين بينما يشكل القراحلة فرعاً من الكلبية أي من الرسالة، والمستغرب في هذا الأمر أن "دوسو" يذكر بعد بضعة أسطر نزاعات كانت تحصل بين الرسالة وخصومهم بيت شمسين؛ لعلّ الخطأ وقع سهواً بين القراحلة والشماسنة.

على كل حال لم يفت المؤلف أن يذكر أن "بيت شمسين" كانوا في طليعة المقاومين لحملة ابراهيم باشا على سوريا وبذلوا دماءهم ثمناً لذلك فكانوا في طليعة الشهداء السوريين.

بعد هذا العرض السريع لتلك المرحلة، يصل "دوسو" إلى مرحلة اسماعيل خير بك فيضعها في سياقها

التاريخي، فبعد مغادرة القوات المصرية عادت الاضطرابات إلى المنطقة وتجددت المعارك بين "بيت شمسين" والرسالنة، وربما كانت هذه الأحداث تتم بتشجيع خارجي لأن السلطة العثمانية وجدت فيها فرصة للتدخل (حسب ما يقول المستشرق "كتفاغو") فأتى طاهر باشا شخصياً من حمص، لأول مرة، على رأس حملة لإعادة الأمن إلى المنطقة، ومع ذلك لم يتمكن من بسط نفوذ السلطنة.

في تلك المرحلة برز اسم اسماعيل خير بك وهو من السكان الأصليين ومقدم^١ من عشيرة المتاورة، وكان معروفاً بسطوته، فما إن استقرّ في صافيتا مع بضع مئات من رجاله وأطلق على نفسه لقب "مشير الجبل"، حتى استتبّ الوضع الأمني في المنطقة.

أبدت الحكومة التركية استحسانها لسطوة اسماعيل خيربك فسلمته مقاليد الأمور وعيّنته حاكماً على منطقة صافيتا، وأقيم له استقبال فخم في طرابلس ثم في بيروت.

^١ - المقدم في العشيرة، بالترتيب العشائري هو من وجهائها، ويمكن ان يُنتدب ليمثلها.

ومن ذلك الوقت لم يعد لبیت شمسين، ولا للرسالة ولا للخياطيين وسواهم إلا أن ينصاعوا للسيد الجديد.

اتسع نطاق نفوذ اسماعيل خير بك حتى شمل معظم مساحة الجبل وصولاً إلى تخوم انطاكية ، وثبت حكمه في المنطقة وبنى سرايا الدريكيش وسرايا اللقبة، واتخذ من الدريكيش مركزاً لحكمه.

حيكت حوله أقاصيص أسطورية سرد "دوسو" بعضاً منها مقارناً إياها بالأساطير التي راجت في القرن الثاني عشر عن زعيم الإسماعيليين رشيد الدين سنان "شيخ الجبل"، وعلل "دوسو" تلك الروايات بأنها نتاج الوجدان الشعبي الذي يفتش عن الخوارق بعد أن تجدد لسبعة قرون تحت وطأة السيطرة الخارجية.

بعد بضع سنوات صدر فرمان سلطاني بتعيين اسماعيل خير بك حاكماً على الحصن مع إقامته في قلعته (قلعة الحصن Crac des Chevaliers) فتحرّكت النعرة الدينية واندلعت الفتنة الطائفية، فأبطلت الحكومة قرارها بتعيينه الجديد؛ وهنا نجد "دوسو" مكتفياً بسرد مقتضب لنهاية اسماعيل خير بك لا يشبع فضول القارئ، ولو أنه تعقب الأخبار لكان وصل إلى الحقيقة الواضحة التي تُفسّر سبب

تلك النهاية. فلا يُعقل أن تنتقل حالة شخص من تنعمه بالامتيازات والمراعاة المفرطة، إلى ملاحق تنتظم الفيالق لمحاصرته ومحاولة تصفيته بصورة مفاجئة، فسيّر والي دمشق الجيوش إلى منطقة صافيتا والدريكيش بقيادة طاهر باشا الذي كان من أبرز القادة العثمانيين في تلك المرحلة. انتصر اسماعيل خير بك في أول معركة مع الجيش العثماني وغنم مدفعيتهم، فلم يجد الوالي سبيلا إلى الحسم إلا بالحيلة، فتوصّل إلى خال اسماعيل ووالد زوجته ورشاه، ولما كان اسماعيل في ضيافة خاله علي الشلي عمد هذا الأخير إلى قتله وأخيه وأرسل رأسيهما إلى طاهر باشا كدليل على التنفيذ.

لقد قمنا بمراجعة البرقيات التي كان القناصل الأوروبيون يزودون بها حكوماتهم، فمن هذه القراءة يتبيّن أن القرار بتصفية اسماعيل خير بك كان مأخوذاً سلفاً، وربما جاء قرار تسليمه قلعة الحصن بمثابة الشرارة التي أولعت نار الفتنة وأجّجت الصراع الطائفي ليكون الذريعة التي تبرّر التدخّل، فقد ورد في برقية أرسلها القنصل البريطاني العام في بيروت "مور" إلى الكونت دي ملمسبوري في ٢٧-١٠-١٨٥٨ ما يلي: "...حدثت منذ بضعة أسابيع قلاقل مهمّة في جبال النصيرية، نشأت عن الوسائل التي تذرّعت

بها الحكومة التركية لإخضاع أهاليها النازعين إلى الثورة، وعن استيفاء الضرائب المتأخرة، إن الزعيم الأكبر في هذه الحركة هو اسماعيل خير بك الشهير، وقد أثارت عليه الحكومة التركية الأهالي المسلمين في النواحي المجاورة، وفي الوقت ذاته أرسلت عليه منذ خمسة عشر يوماً قوة من اللاذقية قوامها ثمانماية من الجند النظامي وأربعماية من غير النظامي بين فرسان ومشاة...^١

يضم كتاب المحررات السياسية عدة برقيات أخرى تفيد بأن الحكومة التركية كانت تؤلب الناس على اسماعيل خير بك فتحرّض عليه أهالي القرى المجاورة من أكراد ودنادشة وتدعمهم بالسلاح والرجال، ومع ذلك فقد اضطرت لمحاصرته وهو لاجئ في مقر خاله علي الشلي الذي قتله غدراً وجزّ رأسه ورأس أخيه ناصيف وأرسلهما إلى السراي بدمشق.^٢

يصف "دوسو" في الصفحات الأخيرة وضع المنطقة بعد موت اسماعيل خيربك إذ حوّلت الحكومة التركية كل جهودها لاعتماد إدارة مباشرة لجبل النصيرية حيث أصبح

^١ - المحررات السياسية المجلد الأول برقية رقم ١٨٧ ص ٣٣٩

^٢ - برقية رقم ١٩٩ المحررات مج ١ ص ٣٤٨

الموظفون العثمانيون يتولون بأنفسهم جباية الضرائب وتجهيز الكتائب العسكرية، فكان لا بدّ، والحالة على ما هي عليه، من القيام بغارات خاطفة ومتكرّرة، ويورد في هذا الصدد قسمًا من التقرير الذي وجّهه المندوب الروسي المعتمد في اللاذقية إلى القنصل الروسي العام في بيروت، يذكر فيه معاناة الأقضية النصيرية من الظلم والحرمان، وبعد أن يصف البؤس الذي كان يسود في منطقة اللاذقية يضيف المندوب الروسي: "أما الحالة في قضاء جبلة فهي أسوأ، فقد دُمّرت قرى النصيريين نهبًا وحرقًا؛ فجباة الضرائب، والموظفون الأتراك وندماء القائمقام يرتكبون مظالم فظيعة مذهلة، يسلبون الأهالي وينتزعون منهم كل وسائل العيش، فيهرع النصيريون ونساؤهم أفواجًا إلى جبلة أمام القائمقام ليشتكوا أمرهم إليه ولكنهم كانوا يُطردون تحت ضربات العصي والسياط وسخرية القوم".

يختم "دوسو" كتابه عن تاريخ النصيريين بتقييم تاريخي موضوعي قلّ نظيره، أورده كما جاء :

"من هذا العرض، الذي قُدّر له أن يكون موجزًا بسبب قلة الوثائق، تتبيّن ملامح شعب، فُرض عليه أن برزح دائمًا تحت تبعيّة ضيّقة، ومع ذلك فقد عرف كيف

يحافظ على نمط حياة نابع من محيطه الجغرافي، حياة مجتهدة فاعلة جدًا. ففي ظل سيطرة الفينيقيين، الذين شغلوا البلد طوال عدة قرون ونشروا فيه معتقداتهم، حافظ النصيريون على ذاتيتهم الإثنية. وبعد ذلك اجتاحت المنطقة أقوام آخرون؛ فلم يفكر الغزاة الإغريق، والعرب، والإفرنج إلا بأن يُكَلِّلوا المواقع الرئيسة بالقلاع المنيعة. ولكنهم انسحبوا كل بدوره وبقي النصيري، متشبثًا بأرضه بثبات يحرق حقله ويعتني بكرمه وبأشجار الزيتون، يُربّي ماشيته، محتفظًا في ذاته في ممارساته الخاصة بسمات معتقدات قديمة."

تزخر المكتبات بالعديد من الكتب التي تناولت طائفة "العلويين" أو "النصيريين" بأفكار مسبقة اعتمادًا على أقوال وفتاوى صدرت بشأنها متّهمة إياها بالغلو والزندقة، وحكمت عليها بالتكفير والخروج من حظيرة الإسلام فكثرت الأقاويل حولها، ما حجبها عن الرؤية الشفافة، وحال دون الوصول إلى نتيجة علمية تشبع فضول الباحث العقلاني الذي ينشد الحقيقة البعيدة عن الالتباس، وقد أوجز "جاك ووليرس" وصف حالتهم بالعبارة التالية: "لم يغفل التاريخ عن شعب بقدر غفلته عنهم وذلك حتى أواسط القرن العشرين".

وما حملني على الاصرار على قراءة "دوسو" هو أن مجمل الكتب التي ألمحتُ إليها في المقطع السابق اقتطفت بعض ما احتوته من كتاب "دوسو" ولكن لما قرأت "بلاد العلويين-Le pays des Alaouites" لمؤلفه جاك ووليرس Jacques Weulersse وهو قد اعتمد على دوسو أيضاً لمست بعض الفوارق في منهجية الخطاب، فرأيت من المفيد الاطلاع على ما قاله "دوسو" مباشرة وليس من خلال ناقل عنه؛ ولما تسنى لي قراءته وجدت عنده محاولة علمية سليمة في البحث عن الحقيقة، فها هو يتبنى، في معرض سرده للحملات الصليبية، أول نقد علمي موضوعي لما جاء في فتوى ابن تيمية. فالكتب التي جرّحت بالنصيريين واستشهدت بكتاب دوسو، إنما اجتزأت منه ما تعتبره مؤذياً لهذه الطائفة؛ فهذه الكتب جاءت نتيجة ظروف سياسية واجتماعية أملت لها الانتماءات المختلفة التي كانت تصوّب على شائعات تمّ ترويجها من دون أن يُطرح التساؤل حول صحة تلك الشائعات أو بطلانها، ولعل ذلك يعود إلى التعصّب الذي يشكّل الخلفية الكامنة وراء هذه الأخبار المروّجة. والتعصّب في أساسه يعني ادّعاء احتكار المعرفة والصواب ويُفضي بالنتيجة إلى النظرة الإلغائية والتكفيرية.

إنَّ أحاديّة الرأي لا تؤدّي، في أحسن الأحوال، إلا إلى نصف الحقيقة، فقد يُنظر إلى حدث ما، من زاوية معيّنة، بصرف النظر عن الأسباب التي أدّت إلى حدوثه، ويتكوّن في ذهن القارئ من هذه النظرة آراء يقينيّة ثابتة تكون هي بعض المقاصد من حصول الحدث برمّته؛ وفي ذلك يكمن الخطأ الجسيم الذي يقع فيه كُتّبة التاريخ حين يكتفون بسرد ما حصل من دون الرجوع إلى علته التي أفضت إليه، وهذا ما نَبّه إليه ابن خلدون باعتماده قانون السببيّة حيث يقول "إنّ لكل حادث سبباً"، ولعل أفدح ما يقع من مغالط عند المؤرّخين، عندما يكتفون بالأخذ "عن من يقول" من غير أن يُمحّص "ما يقال"، وهذا أيضاً ما حذّر منه ابن خلدون لما جعل "الثقة بالناقلين" من أهم أخطاء المؤرّخين.

لذلك عندما قرأت المحاجة العقلية عند "دوسو" في معرض نقده لسانتر، و"دو غوبينو" و"ابن تيمية"، بدا لي أنّ هذا الباحث موضوعي في كتابته؛ إنّه يورد الخبر للأمانة العلميّة ثم يُجري عليه محاكمة عقليّة ويبيدي رأيه فيه ليضعه أمام القارئ فاتحاً عليه نوافذ النقد ويترك لعقل القارئ أن يأخذ بما قرأ أو لا يأخذ به.

وهنا وقعت اشكالية البحث عن الحقيقة، فأكثر الذين أخذوا عن "دوسو" أشاحوا بنظرهم عن الملاحظات المنطقية التي أبداها، لأنهم غاصوا على هذا الموضوع بأحكام مسبقة وجلّ اهتمامهم إيجاد ما يؤيد هذه الأحكام.

على من يتصدى لكتابة التاريخ أن يتّصف بالنزاهة والتجرد والصدق فإذا لم تكن كتابة التاريخ مهمة متجردة ترمي إلى تسجيل الحوادث الكبرى والدورات المجتمعية التامة التي تمرّ بها البشرية لاستخلاص العبر وتزويد الأجيال الآتية بمكامن الطاقات التي ينجم عن استثمارها تقدّم الإنسانية ورفي مجتمعاتها، فإن هذه المهمة تبقى مبتورة ومن دون فائدة.

في هذا السياق، نردد مع الدكتور ناصيف نصار: "وكل تاريخ هو إدراك، بالرجوع إلى الوراء، للصيرورة الإنسانية أيّا كان تصوّر حول طبيعة هذه الصيرورة أو معناها، فاللجوء إلى الذاكرة الشخصية ضروري أحياناً، ولكن المؤرخ لا يستطيع في أي حال الاكتفاء بها، إذ يجب عليه منذ البدء جمع الأخبار المروية المتناقلة وتمحيص أحوال ناقلها الخلقية والنفسية".^١

^١ - الدكتور ناصيف نصار "الفكر الواقعي عند ابن خلدون" ص ٥٨

مرّ معنا في بداية هذه المقدمة أن "دوسو"، بعد أن استعرض أكثر الآراء المتعلقة بتسمية "النصيريين" استصوب نظرية "بلين" القائمة على الانتماء الجغرافي، وهذا الرأي ليس مجافياً للواقع ولا يتناقض معه تناقضاً جازماً، فالبيئة الطبيعية الناشئة من عناصر المناخ وطبيعة التربة والموقع الجغرافي معاً، عامل جوهري في تكوين التاريخ لأن التاريخ الإنساني يغوص بجذوره كلها في الواقع المادي للأرض^١. فالبيئة تؤثر تاريخياً، لأن طبيعة الأرض بتكوينها الجغرافي تُجبر المجموعات الإنسانية على التفاعل معها، فإما أن تحثها على التحرك أو بالعكس تحدّ من مجالاتها الحيوية.

أما بالنسبة إلى المعتقد الديني، بشكل خاص، فمما لا شك فيه أنّ تحوّل شعب أو فرد إلى ديانة جديدة لا يغير من طبيعته، لأن المعتقدات تتراكم في الوجدان الإنساني، الواحد فوق الآخر كطبقات من الدهان فلا تختلط ولا تزول. فأبناء هذه المنطقة، في تاريخهم القديم، طرحوا مسائل تتعلق بخلود النفس البشرية دلت عليها الملاحم القديمة التي وجدت

^١ - جان برون " الجغرافيا الإنسانية Jean Brunhes La Géographie humaine p ٢٤-٢٦

في حفريات رأس شمرا وأوغاريت والتي زودتهم برصيد من غزارة التراث الفكري السومري والأكادي والبابلي والفينيقي والسرياني، ولعل هذا ما ألمح إليه "دوسو" في الأسطر الأخيرة عندما تناول اللغات التي ما تزال آثارها باقية فيأتي على ذكر الإغريقية التي يجزم بأنها كانت مفهومة في الجبل لأن نقوشها ليست نادرة، ويضيف "ومن خصائص المناطق الآهلة بالنصيريين أن لها طابعاً سامياً واضحاً، بينما تبقى السمة الإغريقية محفوظة في الغالب.

وهذه الأماكن معروفة جيداً : كطرابلس = Tripolis

وطرطوس = Antaradus.

ينهي "دوسو" بهذه الكلمات: "يمكن القول إذا إن من بين كل الجماعات السورية ذوات اللغة والمعتقدات السامية يبقى النصيريون الأكثر تعلقاً بماضيهم والأصعب تخلياً عن معتقداتهم ولهجاتهم.

في ختام هذه المقدمة أود أن أوضح أمرين الأول أن محمد بن نصير لم يكن سورياً أو من ولاية نازيريني فهو عراقي من سامرا ولكنه كان من محبي أهل البيت ومن المقربين من الإمام الحادي عشر "الحسن العسكري" فالأرجح أن تسمية "نصيري" لم تكن نسبة إليه، بل أنها إما أن تكون موافقة لنظرية "بلين" وإما أطلقت على الأنصار

في العصر الأموي بقصد التصغير للتحقير، وهذا ما يفسر نفور العلويين من إطلاقها عليهم. الأمر الثاني أنّ أبناء الساحل والجبل عند الفتح الإسلامي اعتنقوا الإسلام وتأثروا بمناقبية أهل البيت فوالوهم موالاة صادقة واضطهدوا من أجل ذلك. والمغالاة في ولائهم أتت نتيجة التجني على أهل البيت وتهميش أخبارهم، لذلك كانوا على مر العصور الإسلامية يعانون الاضطهاد والحرمان.

في الكثير من المفاصل التاريخية التي تناولها تاريخ "دوسو" نجد أن "دوسو" لم يصل إلى الأجوبة التي تجعل عمله كاملاً، لكن يحسن بنا أن نقدر أن هذا الكتاب صدر في نهاية القرن التاسع عشر في ظل البيئة الاجتماعية السائدة والموضوعية العلمية تفرض أن نقيم عمله مع وضعه بسياقه التاريخي فهو، بالمعطيات التي كانت متوفرة لديه، تصرف بعقلانية قل نظيرها.

لقد كان رينيه دوسو، باحثاً موضوعياً ومؤرخاً متجرداً وكتابه جدير بالقراءة.

أحمد ناصر

تمهيد

تبقى ديانة النصيريين مجهولة إلى حد ما، مع أن سليمان أفندي^١ قدّم عنها عرضاً مفصّلاً للناطقين بالعربية منذ عام ١٨٦٣. لذلك بدا لنا من المفيد أن نعيد النظر بالموضوع بتمحيص معلومات سليمان أفندي وبإكمالها بمخطوطات النصيريين الموجودة في باريس وبرلين، وبالدلائل المأخوذة على أرض الواقع التي دوّنها الرحالة خلال رحلاتهم إلى شمال سوريا.

وبعد تأمين الحصول على أسس الديانة النصيرية، انصرفنا إلى البحث عن تعيين المؤثرات التي نمت وانتشرت في ظلها. ومن جهة أخرى، إذ اقتصرنا نظرتنا إلى النصيريين، حتى الآن، على اعتبارهم طائفة دينية، فإنهم كانوا أيضاً شعباً مستقرّاً في هذه البلاد منذ زمن بعيد، فكان لزاماً علينا أن نبحث عن أية مجموعة دينية كان هذا الشعب مرتبطاً بها قبل التحوّل الذي خرجت به هذه العقيدة الحالية.

إن الوثائق حول المعتقدات السورية السابقة على المسيحية أو التي عايشتها وبقيت خارجها نادرة لدرجة لا

^١ - سليمان الأدناوي وهو من أضنة مؤلف كتاب الباكورة السليمانية. (المترجم).

يجوز معها إهمال آثارها الواضحة جدًا والمحفوفة لدى النصيريين.

من دون أن نتجرأ بالتباهي بأننا وضعنا هذه الجماعة في موقعها الطبيعي بين الطوائف السورية المتعددة في كل الأزمنة، فقد أردنا أن نشير إلى دورها السياسي والديني.

تنقسم هذه الدراسة إلى قسمين: الأول تاريخي والثاني ديني؛ تتصدرها قائمة المصادر والمراجع (الببليوغرافيا) وبختامها ملحق يتضمن نص وترجمة الفصول الستة عشر من كتاب النصيريين الديني بامتياز : كتاب المجموع.

رينيه دوسو

ملاحظة

نلفت عناية القراء الكرام للانتباه إلى الملاحظة التالية:

تتصدّر الترجمة ست خرائط بانورامية للمنطقة، مدار بحث "دوسو".

الأولى تدل على نطاق السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر.

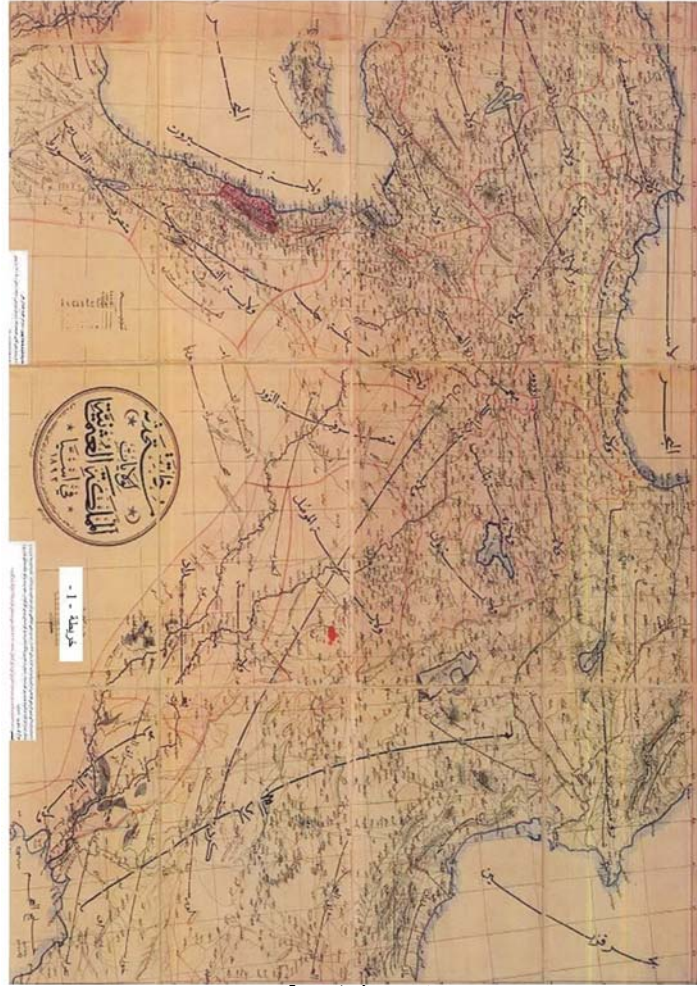
والثانية تُظهر الرقعة الجغرافية التي تقع فيها بلاد النصيريين وفيها دارت جميع الأحداث التي تناولها "دوسو" في سرده، أي ولاية بيروت، باللغة العربية.

أما الثالثة فهي خريطة ولاية بيروت باللغة العثمانية والرابعة كناية عن خريطة الساحل السوري بالأسماء المعروفة في العصر الحديث

أما الخامسة فهي خريطة للمنطقة في أيام الأمبراطورية الرومانية في القرون الوسطى، أي بعد تحوّل روما إلى المسيحية.

والسادسة تدل على القلاع التي كانت قائمة قبل وبعد الحملات الصليبية.

كما تحتوي الترجمة في سياق النصوص خرائط
توضح الأمكنة ذات الأثر والتي مر ذكرها في النص.
وبنهاية كل قسم عزّزنا الترجمة بصور للمناطق
والقلاع أو أطلالها متناسبة مع السرد التاريخي الذي أورده
"دوسو".



خريطة - ١ -
السلطنة العثمانية في آسيا



خريطة - ٢ -

ولاية بيروت التي كانت مسرحاً لكل الأحداث التي تناولها "دوسو"

في تاريخه



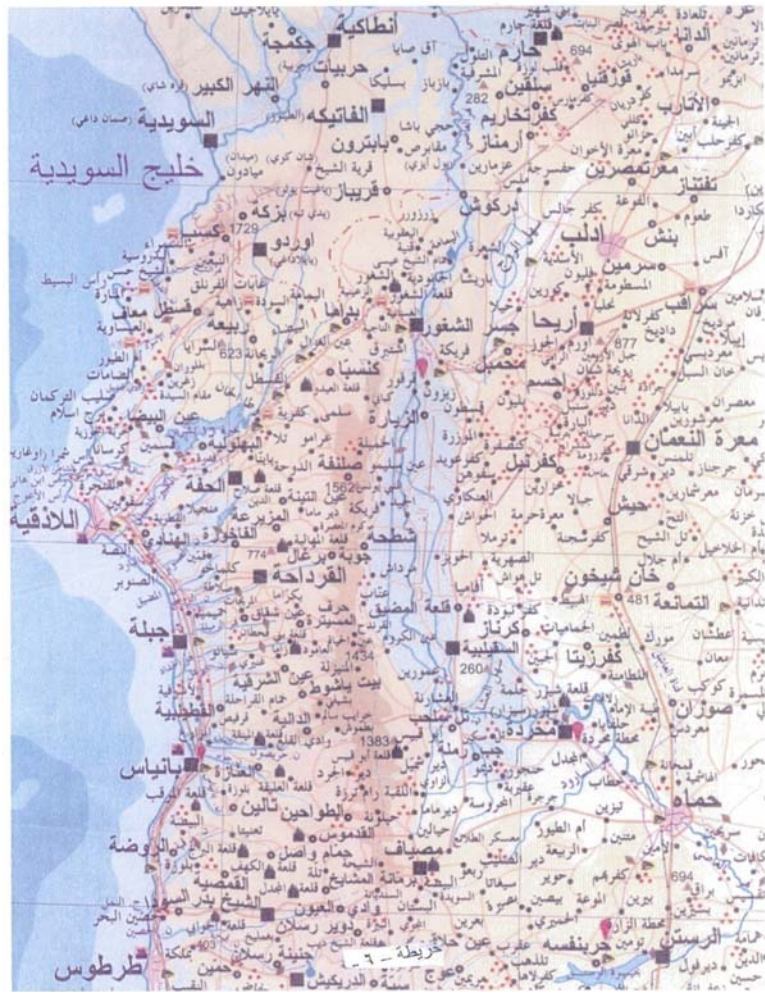
خريطة - ٤ -

خريطة المنطقة بالأسماء الحديثة



خريطة - ٥ -

خريطة المنطقة في عهد الامبراطورية الرومانية المسيحية



خريطة - ٦ -

خريطة المنطقة مع الإشارة إلى القلاع والحصون بالمربعات السوداء

القسم الأول

موطن النصيريين – أصلهم

الفصل الأول

موطن النصيريين

الموقع الجغرافي

تنتهي سلسلة الجبال المسمّاة لبنان شمالاً عند وادي النهر الكبير^١ (ايلوتير القديم l'ancien Eleuthère)، وهو كناية عن فجوة عريضة تصل الساحل^٢ بسهل حمص والبلدان التي يرويها نهر العاصي؛ لتطل، بعد الضفة الشمالية للنهر الكبير، سلسلة جبلية مكوّنة من هضبات كثيفة يبلغ متوسط ارتفاعها ٩٠٠ متر، خالية من السهول ومن المرتفعات العالية؛ تمتدّ هذه السلسلة حتّى أنطاكية حيث يحدّها منحدر عمودي قاسٍ فاتحاً ممراً لنهر العاصي،

^١ - النهر الكبير الجنوبي (المترجم) (خريطة -٧-)

^٢ - الساحل السوري (المترجم)

وتتصل بها من ناحية الشمال الغربي جملة مرتفعات
كاسيوس (كاسيوس = جبل الأقرع).

هذه المقاطعة الجبلية، المحاطة جنوباً بالنهر الكبير،
ومن الشمال والشرق بنهر العاصي، وغرباً بالساحل
(السوري)، مأهولة بكاملها، تقريباً، بالنصيريين —
المدعويين أحياناً كثيرة الأنصارية^١، — ونسبة إليهم كان اسم

^١ - من هاتين التسميتين، الأولى وحدها هي الصحيحة، كما بين ذلك السيد
كليمان هويارت Huart M. Clément، في "النشرة الآسيوية" السلسلة السابعة،
ج ١٤، ص ١٩٩-٢٠٠؛ وتوجد لوحدها في النصوص. ولكن الثانية كانت
متداولة بعامة عند الأوروبيين المعتمدين في سوريا. لم يكن "Volney - فولني"
أول من استعملها. - إذ وردت في خريطة de L'Isle (باريس، ١٧٦٤) بصيغة
أنصيريين Enseyriens. لكنه عمّمها. ونورد في ما يلي كيف شرح م. هويارت
M. Huart تكوين هذه الكلمة: "كان مؤلف (رحلة إلى مصر وسوريا) مأخوذاً
باللفظ العامي الشعبي الذي يُزيل تقريباً الضمة من أول حرف (النُصيرية)، خاصة
بالنسبة إلى أذن غير متمرس، ثم لاشعورياً ينساب حرف "الف" ابتدائي أمام
الكلمة المتداولة، وهكذا كُوتت تسمية أنصاريه، الاسم الذي، أعود وأكرر، كان
مجهولاً بالكامل لدى الشرقيين." ربما كان هناك تفسير آخر، إذا أخذنا بالاعتبار
تأثير أداة التعريف (أل)، وهكذا "جبل النُصيرية" أصبح "جبل النُصيرية". تكوّن
عدد كبير من الكلمات هكذا: الكحول، جزائر، الخ. لا يمكن التفسير بغير هذا
الشكل للنقل الذي أورده دكتور موربورغ Dr Morpurg في رسالته إلى سبترن

جبل النصيريّ، الذي يُطلق على الأخص على المنطقتين الوسطى والجنوبيّة.^١

Seetzen (مناجم الشرق، ج ١، ص ٨٢-٨٣)، عندما يذكر "جبل الأنصيريّ" و"ديانة الأنصيريّ". وعلى هذا كتب م.ماكس فان بيرشم M. Max van Berchem، "أبحاث في علم الآثار في سوريا"، ص ٢٥ (مقتطف من النشرة الآسيوية، ١٨٩٥ ج ٢)، حيث يكتب "جبل أنصارية". وحده، إيلي سميث Eli Smith (روبنسون، فلسطين، ج ٣، عدد ٢) قدّم الشكل المتداول شعبياً بصورة قطعية، الأنصيرية. لم نصادف هذا الشكل أبداً، حتى في النصوص الأقرب تاريخاً. من جهته م. ب.سافوي M. P. Savoye، قنصل فرنسا في دمشق، وهو بالموقع الجيد للحكم في هذا الأمر نظراً لمناصبه السابقة في حمص وطرابلس من سوريا، يوافق على ذلك فيؤكد لنا أن هذه اللفظة غريبة تماماً عن السكان الأصليين. ويلاحظ، منسجماً مع هويارت، عدم ثبات الضمة في المقطع الأول من الكلمة.

^١ - إن أقدم الجغرافيين العرب الذين يُشيرون إلى جبل النصيريّ هما "ابن سعيد، في جغرافيا "أبو الفداء"، منشورات رينو ودوسلان، ص ٢٣٢، و"دمشقي". كوسموغرافيا، ص ٢٠٨.

تبدأ سفوح جبال النصيريه من الضفة الشمالية للنهر
الكبير الجنوبي (L'ancien Eleuthère) حتى صهيون* .

أما القرنة الواقعة بين النهر الكبير الشمالي^١
والعاصي*، فتُسمّى جبل الأكراد، نسبة إلى الأكراد الذين ما
زالوا يشكلون الغالبية المسيطرة فيها. ومن شمال هذا النهر
الكبير حتّى العاصي تمتدّ مقاطعة خصبة هي جبل

* - تقع قلعة صهيون (أو قلعة صلاح الدين) قرب مدينة الحفة في محافظة
اللاذقية.

٢- ينبع النهر الكبير من سفوح جبال محافظة اللاذقية ويبلغ طوله ضمن
الأراضي السورية ٦٠ كلم، ويصب بالقرب من اللاذقية.

٣- ينبع نهر العاصي من أعالي سهل البقاع في لبنان ثم يمر في الأراضي
السورية ليشكل وادي العاصي. يدخل إلى بحيرة قطينة في حمص ويخرج منها
متابعاً مساره حتى بلدة الرستن، ثم يدخل مدينة حماه حيث أقيمت عليه النواير
المشهورة ويتجه بعدها إلى الشمال حتى جسر الشغور ثم يدخل مدينة انطاكية
حيث يصب في خليج السويدية في البحر الأبيض المتوسط، يبلغ طول النهر
٥٧١ كلم، يجري في سوريا وتركيا مسافة ٥٢٥ كلم وفي الأراضي اللبنانية ٤٦
كلم . (المترجم)

^١ - ينبغي التمييز بين نهريّن يحملان اسم النهر الكبير في سوريا. أحدهما هو
الالوتير القديم والآخر في الشمال، واسمه القديم مجهول، يصب على مقربة من
اللاذقية وهو المقصود هنا.

القُصير حيث يتناقص عدد النصيريين بشكل مطّرد بسبب مضايقة الآغا المسلم فيها والاضطهاد الذي كان يمارسه عليهم.



خريطة - ٧ - مكرر

التوزع السكاني وتنوعه

كذلك يوجد تجمع سكاني كثيف منهم في أنطاكية^١، حيث يتميزون بصناعاتهم وأحوالهم الميسورة نسبيًا. والتفاوت الاجتماعي لافت بين حالاتهم. فبينما نرى نصيري البلدات الجبلية، الذي جعله عدم جدوى العمل كسولاً وجاهلاً، يعيش من محاصيل عابرة غير ثابتة ومن أعمال سلب أكثر ثمرًا، تراه في أنطاكية نشيطًا وملاكًا وتاجرًا ومؤهلًا

^١ - في منطقة أنطاكية التي يعرفها سليمان جيدًا، يشير في كتابه الباكورة، ص ٥٦، إلى قرى مأهولة تخصيصًا بالنصيريين، كـ "الدرسونية"، القريبة من بيت الماء (Daphné)؛ و"النهر الصغير"، حيث التجمع السكاني لوادي نهر قارانشاي الصغير. راجع قائمة هارتمان، المجلة الصادرة عن "جمعية الجغرافيين" ج ٢٩، ص ٥١١؛ الجلية الواقعة على الضفة اليسرى للعاصي، بالقرب من المصب، وهي قرية باتت مشهورة بالنسبة إلى الشيخ إبراهيم الجلي. راجع قائمة هارتمان (ص ١٥٨-١٥٩ و ٥١٣). ويذكر سليمان أيضًا "السويدية"، وهي مجموعة مزارع بين سلوقية القديمة والعاصي؛ وأخيرًا العديّة، وتبعد حوالي ٦ كلم من شمال أنطاكية (خريطة - ٨)



خريطة رقم ٨-

لكل المهن، وإلى حدّ ما ثريًا؛ أسّس في مرسين وطرسوس وأضنه مستوطنات مزدهرة.^١

لا بد من الإشارة هنا إلى أنّه يوجد في المحيط النصيري، كما رسمنا حدوده، بعض قرى أرمنيّة* حول جبل كاسيوس (الأقرع)، كما يوجد في عمق جبل النصيريّ جماعات من قدامى الإسماعيليّين الذين بقوا في المنطقة وهم يقطنون في القدموس ومصيف وضواحيهما. أما النصيريّون في جنوب النهر الكبير الجنوبي، (l'ancien

^١ - أشار إلى حضورهم في هذه النقاط Victor Langlois فيكتور لانغلو، "مجلة الشرق والجزائر" السلسلة الجديدة ج٣ (١٨٥٦)، ص ٤٣١-٤٣٧، وقبل ذلك (١٨٤٣) في كتاب "المقترّب"، المكتبة الوطنية، أصل عربي، مخطوط ١٦٨٥ مستند ٣٢: "تتواجد طائفة النصيريين الآن في قضاء اللاذقية، وفي أنطاكية وقضاها، وفي طرسوس وأضنه، وفي منطقتي حمص وحماه ، الخ". وسليمان، مؤلف كتاب الباكورة النفيس، أصله من أضنه. راجع أيضًا " Favre et Mandrot فافر وماندروه في رحلة إلى كيليكية" ١٨٧٤، في نشرة جمعية الجغرافيا، كانون الثاني ١٨٧٨ ص ١٩.

* - بعد توالي الغزوات على بلادهم، تشتت الأرمن في أقطار أوروبا وآسيا (بلاد العجم والهند والبلاد العثمانية كمصر وسوريا

(Eleuthère) فعددهم قليل اليوم، قياساً بما كانوا عليه قبل أربعين سنة.^١

يميل موارد لبنان وبعض السوريين من الروم الأرثوذكس لإبعاد النصيريين نحو الشمال؛ يُلْمَس هذا الأمر خاصّة في صافيتا حيث كانت عائلة بشّور تسيطر بالكامل لبضع سنوات خلت (وهم سوريّون مسيحيّون أرثوذكس، أصلهم من بيروت^{*}).

حملت أعمال الحصاد النصيريين على النزول إلى وادي العاصي، حتّى البقاع^٢، فهم يسكنون بعض القرى غربي بحيرة حمص^٣، وقد أشار روبنسن Robinson إلى تجمّع سكانيّ لهم قرب بانياس Panéas جنوبي وادي التيم^٤.

^١ - راجع رينان "بعثة فينيقيا"، ص ١٢٤

^{*} - وفي مراجع أخرى من حوران جنوبي سوريا

^٢ - ساخو Sachau "رحلة في سوريا وبلاد ما بين النهرين" ص ٥٦-٥٧.

^٣ - فان كاسترن Van Kasteren لفتايا "مجلة الجمعية الألمانية . الفلسطينية"

ج ١٦ عام ١٨٩٣ ص ١٨٤

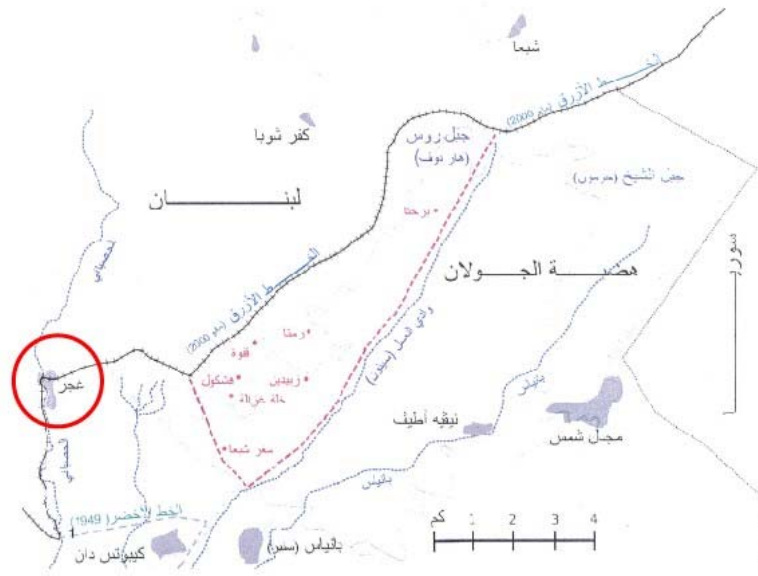
^٤ - روبنسن Robinson "فلسطين" ج ٣ ص ٦٠٧ و ٨٨٧ وأبحاث توراتية جديدة

في فلسطين، برلين ١٨٥٧، ص ٥١١؛ سيتزين Seetzen، "رحلة" ج ١

تأتي هذه المعلومة الأخيرة على قدر من الأهمية، إذا أُضيفت إلى ما نوه به "ابن قاضي شُهبه" عن النصيريين في تلك المنطقة في أواسط القرن الرابع عشر^١، حيث يشهد بانتشار هذه الطائفة نحو الجنوب عبر فجوة البقاع، في وسط المنطقة الدرزية. يوضح لنا في شهادته النزاع الديني الذي أجاج الصراع بين النصيريين والدروز، وما تزال ذكره محفوظة في مخطوطات الدروز.

ص ٣٢٦-٣٢٥ وج ٤ ص ١٥٤-١٥٥؛ ج. شوماخر G. Schumacher "الجولان" ص ٧٦ و ٢٧٢. هذه القرى هي الغجر، وزعورا، وعين-فيت. وهذا ما ثبتته المخطوطة الدرزية رقم ٤٢٩١، الورقة ٥٥ خامساً، الموجودة في المكتبة الملكية في برلين: "النصيرية في سورية يسكنون الجبال المسمّية باسمهم في جبال اللاذقية وطرابلس وحماه. ويوجد عدد كبير منهم بمدينة دمشق في الصالحية وثلاثة قرايا من مقاطعة الحولة تابع القنيطرة وهي عينفيت، وزعورا والغجر". (هذا النص من الوثيقة الأصلية)

^١ - المكتبة الوطنية، أصل عربي، مخطوطة رقم ١٥٩٨ ص ٦٣ خامساً و ٦٤ أولاً. ذكره كاترمير Quatremère ، في "تاريخ سلاطين المماليك"، ج ٢، القسم الأول ص ٢٥٨: "ظهرت الاخرى في مقاطعة البقاع، بين سكان هذه المنطقة، وسكان وادي التيم. أحضرت الكتب التي كانت قد نُهبَت من الأعداء، والتي تحتوي مبادئ الإلحاد ومعتقدات النصيريين." سنة ٧٤٥ هـ. راجع ابن الفرات، نقل كاترمير، "مناجم الشرق"، ج ٤، ص ٣٤٩ (خريطة - ٩ + ١٠)



خريطة - ٩ -



يُحصى أيضًا عدد من النصيريين بالقرب من العاصي في بلدة الروج ar-Roudj وفي الجبال المجاورة لها شرقيّ العاصي، وخاصة جبل الأعلى^١. كما كانت بغداد تضمّ بعض المئات منهم، غير أن هذه النقطة تستدعي الإيضاح. فقد دحضنا في لائحة المصادر والمراجع (bibliographie) رأي السيد دو غوبينو M. de Gobineau، في زعمه بأن خُمسَي سگان إيران هم من النصيريين.

^١ - راجع روسو Rousseau، "نبذة عن الخريطة العامة لباشاليق (إقطاعات الباشاوات) بغداد" ص ١٦
*(خريطة - ١١ + ١١ مكرر)

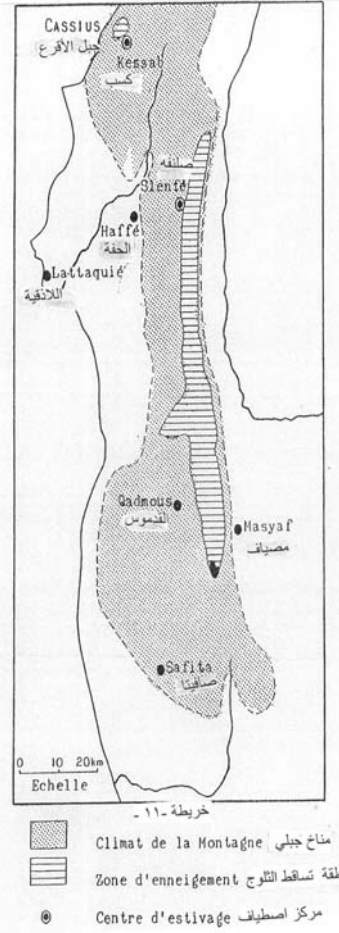


خريطة - ١٠ - مكرر

الثروة الزراعية والحيوانية

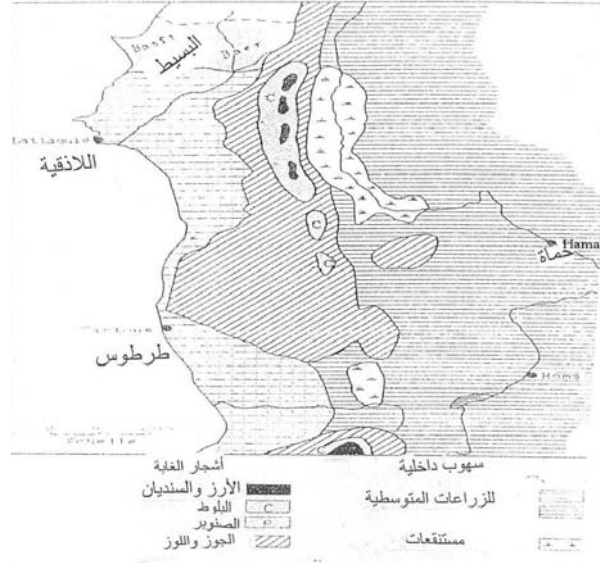
يمتاز المناخ في جبل النصيري بمزاياه الصحية*. فهو من نسيج المناخ العام في سوريا؛ لكن الحرارة في أجوائه أقل وطأة مما هي عليه في الساحل.

وأصناف الزراعة الرائجة في ربوعه هي من الأصناف المألوفة في حوض المتوسط : الحبوب، والقطن، والسمسم، والبصل، والسوس، والتبغ، والتوت، فالزيتون، والتين، وكروم العنب، والحمضيات، والأشجار المثمرة؛ كما يصادف المرء الكثير من الأشجار الحرجية من بينها : الصنوبر، والبلوط، والدلب... الخ. أمّا عن الثروة



الحيوانية فتربية الماشية رائجة وتشمل الجواميس، والبقر، والغنم، والماعز، والخيول والحمير، والبغال. ومنذ بضع سنوات أصبح إنتاج البيض يفسح المجال لتجارة مهمة.

تحظى منتجات زراعة الكرم والتبغ بتقدير خاص؛ فالأعصاب التي تنتجها صهيون هي الأكثر شهرة، حتى أن المؤرخ سترابون Strabon يقول في وصف تلك المنطقة: "يتميز إقليم اللاذقية بثروته الزراعية المتنوعة ولكنه الأغنى بالكروم، فهي تزود مدينة الإسكندرية بالقسم الأكبر من نبيذها.



خريطة ١١- مكرر

والجبال التي وراء المدينة^١ مغطاة بكاملها بالكروم التي تكاد أن تلامس قممها. تبعد هذه القمم كثيرًا عن اللاذقية، وهذا ما يسهّل ارتقاءها من جهة الساحل؛ لكنها (في المقلب الآخر)* تشرف على أفاميا حيث ينخفض الجبل صوبها عمودياً^٢. ولئن تراجعت صناعة الخمر هذه الأيام حتى قاربت الزوال بسبب الإهمال التركي — أكثر مما هو تقيّدًا بتعاليم القرآن —، فقد وجدها موندريّ Maundrell، بنهاية القرن السابع عشر مستمرّة في ازدهارها. وهو يقول، متحدّثًا عن النصيريين، " كل ما هو أكيد بصددهم أنّهم

^١ - وليس التي "فوق المدينة"، كما ترجمها م.أ. تارديو M.A Tardieu، في "جغرافيا سترابون"، ج ٣ ص ٣٢٧، وهذا ما لا يتلاءم مع الوضع الطبوغرافي للمنطقة. فاللاذقية في وسط سهل فسيح.

* لم ترد هذه العبارة في النص عند دوسو Dussaud . ولكننا أضفناها ليستطيع القارئ استيعاب الفرق بين الناحيتين، إذ تطل جبال اللاذقية من الناحية الأخرى على منطقة الغاب حيث تقع أفاميا التي تبعد عن اللاذقية أكثر من مئة كلم ومن تلك الناحية يأتي انخفاض الجبل عمودياً بعكس الصعود من جهة اللاذقية حيث الميل (la pente) خفيف ما يجعل الصعود سهلاً (المترجم).

^٢ - سترابون، XVI، ٢، ٩. Strabon,

ينتجون كمّيات كبيرة من الخمر الجيد وإنهم يُتقنون
الشراب.^١

عرفت المنطقة زراعة أقرب تاريخًا، ولكنها ليست
أقل شأنًا، وهي زراعة التبغ. فقبل قيام مؤسسة الريجي
(إدارة حصر التبغ والتبناك) العثمانية، كانت هذه الزراعة
من أهم الثروات في البلد. كان يُصدّر منها كمّيات كبيرة إلى
مصر^٢ يميّز السكّان الأصليّون بين فئتين من التبغ هما: "أبو
ريحا وشك البنّت"، في هذا السياق يقدّم لنا "بوجولاه
Poujoulat" بعض التفاصيل عن التحضير: "يُزرع تبغ
اللاذقية*، الألد مذاقًا والأطيب عطرًا والأجود، والأكثر
شهرة في الشرق، في الجبال المجاورة المأهولة من
الأنصارية.

^١ - هنري موندريل Henri Maundrell، "رحلة من حلب إلى القدس" أوترخت
Utrecht ، عام ١٧٠٥، ص ٢٠

^٢ - سافاري Savary، "رسائل عن مصر" ط٢، ١٧٨٦، ج ١، ص ١٣٧: "التبغ
الذي يُستعمل في مصر مستورد من سوريا" ف. والبول F. Walpole "الأنصارييه
The Ansayrii" ج ١. ص ٥٥: "الصادرات الرئيسة من هنا (اللاذقية) هي التبغ،
لأنها مشهورة؛ يُصدّر الآن حوالي ٣٠٠٠ قنطار سنويًا؛ القسم الأكبر إلى مصر".
بترمان "رحلة إلى الشرق" ج ١ ص ٣١٥ - ٣١٦. * (خريطة - ١٢)

تبيع هذه الجماعة سنوياً ما يتراوح ثمنه بين خمسمائة وستماية ألف قرش من التبغ. يوقّر الأنصاره لتبغهم (التوتون) الرائحة الزكية واللون الأسود اللذين يميّزانه، بإشعال نوع من الخشب اسمه "هزاز"؛ إذ يُعلّقون أوراق التبغ بسقيفة أكواخهم فتتعرّط هذه الأوراق ويميل لونها إلى الإسمرار من جراء الدخان المتصاعد من خشب الهزاز المحروق^١.

الكثافة السكانية وانتشارها

من المستحيل إحصاء عدد الشعب النصيري بدقة. فالرقم الرسمي يبلغ ١٣٠٠٠٠ نسمة في سوريا^٢ — ولكن

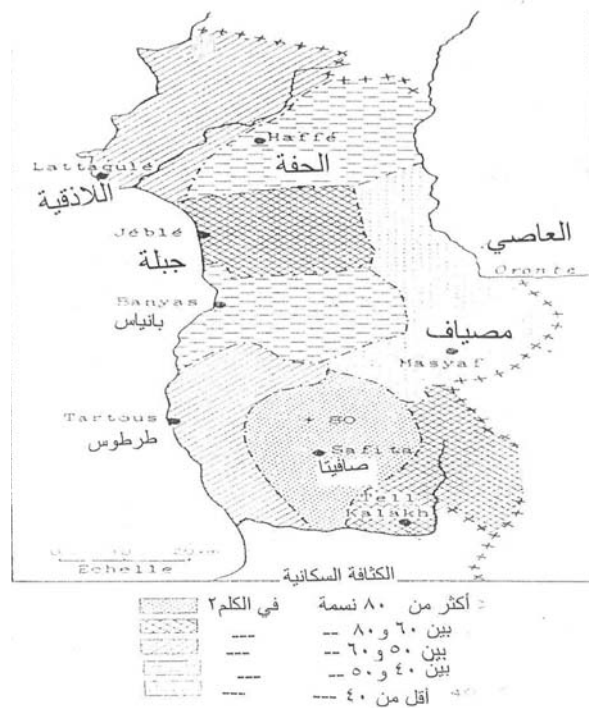
^١ - ميشو وبوجولاه Michaud et Poujoulat "مراسلات الشرق"، ج٦، ص٤٤٣. راجع نايبوهر، Niebuhr، "رحلة إلى بلاد العرب" ج٢، ص٣٥٧.

^٢ - يُقدّر الإرسالي الأميركي فان دايك Van Dyck في كتابه "الجغرافيا العربية" عدد النصيريين بـ ١٢٣٥٠ نسمة. أي، في عكار: ٣٥٠٠، في صافيتا: ٢٥١٦٠، سنجق اللانقية: ٧٥٠٠٠، جبال شرق العاصي: ٣٧٥٠، الناحية المجاورة للرودج: ٥٠٠٠. راجع بتكوفيتش "الأنصارييه ومعتقداتهم الدينية" م. (بالروسية)، سان بيترسبورغ، ١٨٨٩، ص٩-١٠. ولكنه لا يحتسب الكثافة السكانية الضخمة في أنطاكية. - م. بتكوفيتش، المصدر نفسه يدلي بالرقم ١٣٠٠٠٠. إذا أضفنا الأرقام التي قدّمها م. كينييه M. Cuinet، لعدد نصيري

الرقم الرسمي هو دائماً الأدنى في الشرق، لما يلجأ إليه الأهالي للتهرب من الخدمة العسكريّة، ومن الرسوم الشخصيّة،— فإذا جبرنا هذا الرقم قليلاً بإضافتنا إليه عدد النصيريين، المستقرّين في مرسين وأضنه وطرسوس، فإنه يصل بسهولة إلى: ١٥٠٠٠٠ نسمة. ومع ذلك تبقى الكثافة ضعيفة جداً، نظراً لاتّساع الإقليم الذي يشغلونه والذي يُعتبر

سوريا نجد ١٢٠٠٠٠ نسمة (راجع تركيا الآسيوية، ج٢، وسوريا ولبنان وفلسطين)، ولكن يجب اعتبار أن هذا المؤلف لا يقدم أي رقم للنصيريين المقيمين في حماه وقضاء الحميدية (دير الشمال). بل على العكس، يحصي في هذه المنطقة عدداً لا بأس به للدروز (١٠٠٠٠ في قضاء الحميدية و ٢٠٠٠ في مركز قضاء حماه). لا بد من وجود خطأ هنا: إذ لا يوجد دروز في هذه المنطقة. يجب أن يُفهم، من هذا الكلام، أن المعنيين هم الإسماعيليون والنصيريون الذين لم يرد ذكرهم في هذا الإحصاء. فهاتان الجماعتان تُعدّان برقمين متعادلين تقريباً في هذه المناطق، وهكذا يصل العدد إلى الرقم ١٣٠٠٠٠. - ا. فون كريمير، A.von Kremer "مجتمع النصيرية في الخارج"، ١٨٧٢، ص ٥٥٣-٥٥٨، يحسب أن عددهم يتراوح بين ١٢٠٠٠٠ و ١٨٠٠٠٠. - بترمان، Petermann "رحلة إلى الشرق" ج٢، يحصي ٢٨٠٠٠ نصيري في بشاليق حلب و ٤٥٠٠ في أنطاكية ذاتها. (خريطة -١٣)

أكبر من كلّ الأقاليم التي تقيم عليها الطوائف والمجموعات السكانية الأخرى في سوريا^١.



خريطة - ١٣ -

^١ - النصيب الذي قدره "إليزيه ركلو" Elisée Reclus، في خريطة "الجماعات السورية، جغرافيا ج ٩، آسيا القديمة، ص ٧٥٠"، لعدد النصيريين مجفف جداً. إذ يبلغ العدد الحقيقي ثلاثة أضعاف ما هو مقدّر.

ومما لا شك فيه مطلقاً أنه، لو جرى الإحصاء في أوقات أكثر ازدهاراً لارتفع هذا العدد إلى عشرة أضعافه.

النصيريون فلاحون، ومزارعون، وقليلاً ما يسكنون المدن. فإذا استثنينا أنطاكية، التي تحتوي عددًا كبيراً منهم، وجسر الشغور على العاصي الذي يسكنونه بكامله تقريباً، واللاذقية، فإنهم يتجمعون في قرى وضياع صغيرة؛ فلا بد، كنتيجة مباشرة لذلك، أن يندرج مستوى التعليم عندهم بين المستويات الأكثر بدائية، ويكاد أن يكون منعدماً عند الذين لم يتلقوا تعليمهم الديني. لقد حاول المبشرون في الإرساليات الأميركية، لا سيما المبشر "لايد- Lyde"، أن يُقيموا مدارس، بعضها ما تزال تعمل في البلد، ولكن مدرسة اللاذقية الكبرى لا تهتم نهائياً بالطائفة التي كان تأسيس هذه المدرسة هدفها.

الفصل الثاني أصل النصيريين

الآراء الرائجة والفرضيات المتداولة

يكتنف الغموض أصل النصيريين، فربّ باحث قدّمهم كنتاج تلاقح بين السكّان الأصليين والإفرنج خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، معتمداً بذلك على أنّ النصيري، المختلف عن سوري الساحل بقدر اختلافه عن أعراب الداخل، غالباً ما يكون لون بشرته ميّالاً إلى البياض الفاتح. ومن جهة أخرى، فهناك من يعتقد أنه تعرّف في بعض أسماء العلم عند النصيريين إلى آثار باقية من أسماء الإفرنج.

هذه المؤشرات ضعيفة جداً وبالتالي لا يُمكنها أن تكون حجة ذات قيمة يُعتدّ بها، خارج الوقائع التاريخية.

^١ - هذه الإشارات لا تخلو من الوهم الذي سجّله م.إ. شانتر M. E. Chantre، في "محفوظات البعثات العلمية والأدبية" ١٨٨٣ ص ٢٢٨ وجاء فيه: "المسافرون الذين رأوا أنصارين قبلي، وهم عديدون، قالوا إنهم شقر بعامة وإن عيونهم زرق؛ يبدو لي أن هذا التأكيد مبالغ فيه بالنسبة إلى الذين درست أحوالهم. فمن بين

ومع ذلك يمكن القول إنّ السهولة التي يُميّز بها النموذج النصيري عن نماذج السوريين والعرب تأتي خلافاً للفرضية. فمن اليسير التحقّق، في هذه الأيام أيضاً، كم يتفوّق الدم الأصلي بسرعة في اللقاحات مع الأوروبيين. فالمهر (أو الهجين) — هكذا كان يُسمّى النتاج في العصور الوسطى، — يُصبح عنصراً أصلياً إذا لم يتمّ إعداده بالعناية الفائقة. فينبغي ألا ننسى أنّ الإفرنج طُردوا من سوريا، حتى آخر فرد منهم، بنهاية القرن الثالث عشر. فتكون البذرة التي تسنّى لهم أن يتركوها للأجيال المستقبلية في جبال النصيريّة، خلال سيطرة قصيرة، قد تلاشت بالتأكيد في أيّامنا هذه، وأما بالنسبة إلى أسماء العلم المزعوم بقاؤها فإنّ التحقّق منها لم يجر بشكل حاسم.^١

٤٨ شخصاً، كان ستة فقط من ذوي الشعر الأشقر. أما في ما يتعلق بلون العيون فأربعة فقط كانت عيونهم زرقاء اللون".

١- سُحبت نتائج على المنوال عينه بالنسبة إلى الدروز الذين نُظر إليهم كمتحدرين نائهيّن من الكونت دو درو Comte de Dreux في حقبة الحملات الصليبية. هذا الإلتحاق كان دون شك من فعل دبلوماسي على سبيل المزاح، لأن الغرض منه الاعتراف بالدروز كمحميين فرنسيين. راجع خطاب م.ب. دافيد M.P.David ، قنصل فرنسا العام السابق في الشرق، "مدرّب عام"، جلسة

على كل حال فإن ذلك لا يثبت شيئاً للموضوع محور
البحث.

مجلس النواب في ٣٠ كانون الثاني ١٨٤٣. ميشو وبوجولاه Michaud et Poujoulat، مراسلة من الشرق، ج ٧ ص ٣٣١: "الأمير الدرزي الشهير، فخرالدين، ليجمع الأنصار حوله ويلقي نوعاً من البريق على مهد أمته، اعتقد وجوب اعتماد هذه الأفكار؛ حتى أنه فكر بكتابة شجرة سلالة فكان يُذيع أنه متحدر من Godéfrois de Bouillon غوديفروا دو بوييون. "نابيوهر Niebuhr، رحلة في بلاد العرب، ترجمها إلى الفرنسية أمسترد و أوترخت، Amsterd et Utrecht، ١٧٨٠، ج ٢ ص ٣٤٨، - وسبقه، Puget de Saint - Pierre "بوجه دو سان بيار"، "تاريخ الدروز، باريس ١٧٦٣، ص ٣٠٢، - حيث لاحظ استحالة هذه الأسطورة، بما أن بنيامين دو توديل Benjamin de Tudele نوّه عن الدروز. وكان السيد هارتمان M. Hartmann قد أعلن أنه سيهتم بأسماء العائلات ذات الأصل الإفرنجي في سوريا. وفي دراسته، عن "قضاء اللاذقية وناحية أوردو، ج ١٤ ص ٢٣٣"، يصرّح أنه لم يعثر إلا على اسم واحد "بيت الشمبور"، أورده متسائلاً إذا لم يُشتق من Chambord. - إن الأسماء الوحيدة التي كنا نعرفها في سوريا، وهي ذات أصل إفرنجي، واردة من ألقاب أُطلقت على السكان الأصليين من الغرباء. وعلى هذا المنوال عائلة البرنس Ibrins (أمير) في طرابلس وعائلة البامبينو Bambino التي كانت تحظى بتقدير خاص جداً.

صدرت فرضيتان تبدوان أكثر معقوليّة. الأولى تستنتج كلمة نصيري من اللفظة العربيّة نصراني، أي مسيحي. فتصبح كلمة نصيري صيغة تصغير: نصراني صغير (أي مسيحي صغير). وهذا بخاصة رأي "ارنست رينان-Ernest Renan".^١ لا تعتمد هذه الفرضيّة على أيّ نصّ صريح. بل تفترض تحوّل النصيريين إلى المسيحيّة، وسنثبت أن هذا التحوّل لم يحصل.

فلو كان هذا هو معنى نصيري ، لأشار إليه مطران حلب الشهير أبو الفرج في القرن الثالث عشر، لأنه كان مهتمّاً بالتفتيش عن أصل هذا الشعب. ومن دون ذكر دليل حاسم قدّمه بلين Plin، والذي سنعود إليه لاحقاً، فإنّنا لا بدّ من أن نلاحظ أنّ الواقع التاريخي يقتضي، على كل حال، وضع التحوّل إلى المسيحيّة قبل الفتح الإسلامي، وبناءً عليه يبدو غريباً أن نسحب اسم النصيريين من الصيغة العربية "نصراني".

بالخلاصة، إنّ القول بأن نصيري= نصراني صغير، هو السقوط في خطأ يساوي في جسامته زعم "ماريتي

^١ - رينان Renan، بعثة فينيقيّا، ص ١١٤

Mariti- " بأن اسم "يزيدي" مشتق من "يسوعي" ويعني تلميذ يسوع.^١

إن الرأي الأوسع انتشاراً، والمُعتمَد في الأوساط العلمية عامة هو أن تسمية نصيري تعود إلى محمد بن نصير.

يقول "ستانيسلاس غويار StanislasGuyard"، المؤلف الأكثر اطلاعاً والمرجع في هذه الأمور: "إنّ ديانة النصيريين، كالطائفة الإسماعيلية، تأسست في نهاية القرن التاسع(م)، على يد محمد بن نصير أحد أنصار الإمام الحادي عشر للشيعة، الحسن العسكري، الذي كان مقيماً في سامراء (سرّمن رأى) بالقرب من بغداد.

^١ - ماريتي "بحث تاريخي عن جماعة الحشاشين والمناطق النائية في الجبل" ليفورن Livourne، ١٨٠٧ ص ٤١. قبل تصحيح نُسخ المسودات للمباشرة بطبعها تلقينا مقالة الأب لامنس R.P. Lammens عن النصيريين، مقتطفة من مجلة "دراسات دينية"، ١٨٩٩. يتفق العالم المستعرب معنا حول هذه النقطة، فيقول في الصفحة ٣: "يجب الإقلاع عن اعتبار الاشتقاق اللغوي الذي يفضي إلى "صغار نصارى"، فهو اشتقاق مخالف لقواعد اللغة العربية كذلك للتقاليد القومية لهذه الطائفة السورية."

كان للديانة النصيرية، إذًا، أصل شبيه بأصل الاسماعيلية، كما أوحى مع الاسماعيلية ببعض التشابهات خدعت المؤلفين المسلمين إلى حدّ أنهم استنتجوا تطابقًا كاملاً بينهما؛ بينما الحقيقة هي على العكس من ذلك تمامًا، فقد كان بين الاسماعيليين والنصيريين عداوة قديمة تعود إلى قرون ولم تنطفئ بعد^١.

يأخذ السيد كليمان هويارت Clément Huart بهذا الرأي، فبعد أن يورد النص من كتاب "الباكورة السليمانية" الذي يروي هذا الأصل، يستنتج :

^١-ستانيسلاس غويارد - Stanislas Guyard "أحد كبار أمراء الحشاشين في زمن صلاح الدين" مقتطف من "النشرة الأسبوعية" ص ٢٨-٢٩ من مقالة على حدة، باريس، ١٨٧٧. لاستيعاب ما جاء في الصفحات المذكورة، لا بد من الإشارة إلى الالتباس الحاصل بين بنياس، غير البعيدة عن دمشق، وبانياس (Balaneé)، القريبة من المرقب، والتطابق الخاطئ بين جبال السماق وجبال النصيريين. فموقع ناحية السماق على خريطة السيد ري M.Rey، مباشرة في غرب قنسرين، بين إدلب وحلب. يُعزى الخطأ الأول إلى روسو، "بحث حول الاسماعيليين"، في "حوليات الرحلات" ج ١٤، ص ٢٧١، واعتُبر أساسًا.

"لم يعد هناك من مجال للشك: فابن نصير هو الذي أخذ النصيريون اسمهم منه."^١

أقر النصيريون فعلاً نظرية المؤلفين العرب، ولكن الأسطورة الشعبية التي حفظت ذكرى المعارك الكبرى في زمن علي، تنتقل بمحمد بن نصير إلى القرن السابع (م) وتجعل من أبيه الوزير الطيب، لمعاوية البطاش، وها هي الرواية الشعبية كما وردتنا:

كان للخليفة معاوية وزير اسمه نصير من الديانة النصيرية*. وذات يوم سيق إلى مقام معاوية، الذي كان يعقد

^١ - كليمان هويارت Clément Huart "الشعر الديني لدى النصيريين"، النشرة الأسبوعية، السلسلة السابعة، مج ١٤ ص ١٩٩؛ يدعم الأب لامنس هذا الرأي أيضاً، راجع "النصيريون" مقتطف من "دراسات دينية" ١٨٩٩ ص ٦ وما بعدها.

* لا مجال للشك بأن هذه الأسطورة الشعبية لا تجد لها أساساً في المنطق ولا في الوقائع التاريخية، فهذا الوزير المزعوم من المفترض أنه عاش في القرن السابع الميلادي أي قبل ظهور محمد بن نصير بمائتين عام، ومع افتراض صحة وجوده وأنه كان نصيرياً تكون النصيرية سابقة على وجود ابن نصير بقرنين. لكن الحرص على أمانة الترجمة اضطرنا على إيراد الرواية كما ساقها "دوسو" (المترجم).

مجلساً، نصيري اسمه أحمد البنا كان يرفض أن يتبرأ من عقيدته. ولما كان معاوية يجهل حقيقة مشاعروزيه^١، فقد أمر بأن يُلقى الفلاح^٢ في النار. نُفِّذَ الحكم فوراً. ولكن لما دنا أحدهم من النار تبين أن المُلقى به للتعذيب لم يكن النصيري بل يزيد ابن معاوية؛ فأمر الخليفة الجلادين بوقف المحرقة؛ ولكن الرجل الذي أتوا به إليه كان الفلاح، تكرر بدء التنفيذ ثلاث مرّات، وفي كل مرة كان يتم هذا الإبدال العجيب لهيئة أحمد البنا بيزيد. وأمام ارتباك سيده في البحث عن وسيلة جديدة للتعذيب، قرّر الوزير أن يتدخل قائلاً: "لي من العمر ١١٥ سنة، وخلال ٨٠ عاماً بقيت دون ولد، ولي ولد وحيد، فخذ به بدلاً من هذا الرجل." وافق معاوية على هذا العرض بسرور لخروجه من المأزق. وعلى الرغم من توسّلات الأم ويأسها فُبِضَ على ابن الوزير وأُلقي في النار. وعندما احترق جسم الولد بكامله، قال معاوية للوزير: "خذ هذا الرجل من هنا." فاصطحب الوزير أحمد البنا. وبعد قليل ظهر الملاك جبرائيل لنصير وقال له: "بما أنّك سلّمت وحيدك لإنقاذ نصيري، سيكون لك ابن آخر عوضاً عنه

^١ - بسبب الطابع السري لهذه الطائفة.

^٢ - إن لفظة فلاح ذات استعمال رائج عند النصيريين للإشارة إلى فرد منهم، حتى لو كان الشخص المقصود تاجرًا مقيمًا في مدينة.

وسيكون زعيمًا لكل النصيرية. "أخبر الوزير امرأته بهذا الكلام فسُرت وكان الولد الآتي محمد بن نصير.

يستذكر المرء مع هذه الرواية الفكرة المعروفة لولادة الابن الاستثنائي - بطل وزعيم ديني تنطبع جماعة باسمه - التي يُنعم بها على رجل طاعن في السن كإشارة خاصة للعناية الإلهية.^١

هذه الرواية، التي كانت العبرة منها أنّ النصيريين جميعهم أخوة، أفسحت المجال لمخيلة المؤلفين العرب بحسب مفاهيمهم الكيفية لاشتقاقات الكلمات. وبقبولها كما وردت، فاتهم أن يلاحظوا أنّ محمد بن نصير، وهو من أتباع الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية، ما كان يستطيع أن يؤسس نظامًا دينيًا مشتقًا من العقيدة الاسماعيلية التي توقفت عند الإمام السابع*.

^١ - ولادة اسحق، وشمشون، وصموئيل، ويوحنا - المعمدان.

* تأثر المستشرقون بأفكار راجت في السابق عن تقارب بين معتقدات الإسماعيليين والنصيريين (العلويين) ما حملهم على الاعتقاد بأن النصيرية اشتقت من الإسماعيلية، وهذا ما لم يحصل، فالإسماعليون تتوقف سلسلة الأئمة

لهذا التوافق الإسمي القيمة عينها التي تُعقد للتقارب اللفظي الذي يجعل اليزيديين يدعون انتسابهم إلى يزيد بن معاوية^١. وهناك رواية مأثورة أخرى تربط النصيريين بنصير مولى علي بن أبي طالب^٢.

بالنسبة إليهم عند الإمام اسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق لذلك يُدعون بالسبعية بينما النصيريون هم اثنا عشريون (المترجم).

^١-ج، ب شابوت J. B. Chabot في المجلة الآسيوية ١٨٩٦ ج١ ص١٢٠ ويزعمون أنّ أم يزيد أنجبته وهي في سنّ الثمانين. الأب أنستاز P. Anastase اليزيديون "مجلة المشرق ج ٢ ص ٣٣.

^٢- جاء في جغرافيا أبي الفداء: "يقول ابن سعيد إن، في عداد المناطق المعروفة، جبل النصيرية وهم أبناء طائفة يعود أصلها إلى نصير مولى علي بن أبي طالب". راجع جغرافيا "أبو الفداء" ترجمة رينو وستانيسلاس غويار Reinaud et St.Guyard، ج ٢، ص ١١، رقم ٧. يمكن فهم هذا التنسيب لأن ابن نصير موصوف بالعبد. سليمان الأدني، الباكورة، ص ١٩، في تعليقه على السورة ٤ من كتاب المجموع، يقول إن الديانة النصيرية أسسها محمد بن نصير، الذي خلفه محمد بن جندب، ثم عبدالله الجنان الجنبلائي، ثم الحسين بن حمدان الخصيبي الذي يعتبره النصيريون متفوقاً على كل سابقيه وهو الذي أعدّ صلاواتهم ونشرها. نقرأ في السورة ١١ (الباكورة ص ٢٧): "أقر بأنني نصيري الدين جندبي الرؤى، جنبلائي الطرق، خصيبي المذهب، جليّ المقال، ميموني الفقه."

ينبغي إذاً ألا نفاجأ إذا ادّعى النصيريون أنهم هاجروا من بلاد ما بين النهرين^١. ويبدو أنّ هذه النقطة الأخيرة قد أكّدها أبو الفرج بقوله:

"وبما أنّ كثيراً من الناس يتمنون أن يعرفوا من هم النصيريون (فهذه هي قصتهم): في السنة ١٢٠٢ الإغريقية (٢٧٠هـ - ٨٩١م)، ظهر في إقليم عاقولة (الكوفة) في بلدة اسمها نصاريا، رجل طاعن في السن، كثير الصلاة والصيام، ويظهر في حالة فقر مدقع. وقد تعلّق به عدد كبير من سكان هذه البلدة... الخ"^٢. وفي تاريخ السلالات، ينقل أبو الفرج، بشكل مطابق، السرد المتعلق بأصل القرامطة، ويؤيده أبو الفداء في شهادته؛ تأثر أبو الفرج بالتقارب

^١ - نقلاً عن رواية متوارثة مشافهة، فإنهم قدموا من سنجار. وهذه الرواية يشتركون فيها مع جماعات سورية أخرى، كسكان منطقة معلولا. راجع باريزو Parisot "اللهجة في معلولا" ص ٣٢ (مقتطف من المجلة الآسيوية، ١٨٩٨).

^٢ - أبو الفرج "أخبار سورية. chron. Syr." ج ١ ص ١٧٣، راجع السمعاني "المكتبة الشرقية" ج ٢ ص ٣١٨. لقد استعرنا ترجمة هذا المقطع من سيلفستر دو ساسي، "عرض ديانة الدروز"، ج ٢، ص ٥٦٢.

اللفظي بين نصيري ونصاريا. ولعله خلط بين النصيريين والصابئة، وربما كان "شخص نصاريا"^١ صابئياً.

وقع هذا الخلط عدة مرات، خاصة مع شبرنجر^٢ Sprenger. أما رواية "أبي الفرج" عن أصل النصيريين، والتي لا يُمكن أن يؤخذ بها مطلقاً، فقد كان لها، مع ذلك، فائدة، إذ أثبتت لنا أن النصيريين لم يكونوا من قدماء النصاري، فلو حصل أسقف حلب المشهور على أدنى دليل بهذا الشأن لما فاتته أن ينوّه عنه.

^١ يقيم الصابئة حالياً، على الأخص، في ضواحي البصرة بحسب ما جاء عند السيوفي في "أبحاث في ديانة الصابئة Etudes sur la Religion des Soubbas ou Sabéens"، ومن المثير للانتباه أن يظهر في هذه الدراسة اسم قرية ضَبَطَ "السيوفي" كتابتها بـ"ناصرية" Nasseriya أي بالتأكيد "نصاريا". ولكن هذه البلدة تختلف عن تلك التي أشار إليها أبو الفرج في جوار الكوفة. مع ذلك يُفترض بأن الصابئة، وهم صناعيون مهرة، انتقلوا، بعد دمار الكوفة، إلى جوار البصرة وأطلقوا على القرية الجديدة اسم القرية القديمة. راجع نقولا السيوفي "أبحاث في ديانة الصابئة" ص ١٥٨ وما بعدها. باريس، المطبعة الوطنية ١٨٨٠.

^٢ شبرنجر Sprenger، "حياة وتعاليم محمد" ج ١، ص ٣٨ و ٤٢ راجع البيبليوغرافيا.

ولكي تتم سلسلة الأساطير الاشتقاقية اللغوية كان لا بد من ذكر وجهة النظر، على غرابتها، التي تربط النصيريين بأنصار النبي: "ففي الأصل إن كلمة نصيرية، ومفردها نصيري، هي تصغير لفظة نصارى* . وهذه الطائفة كانت في البدء إحدى قبائل الحجاز؛ وقد تزامن ظهورها مع دعوة النبي محمد^١."

من جملة القرائن التي يمكن أن تساهم في اعتماد أصل النصيريين كشعب من بلاد الرافدين، أنّ الجغرافيين العرب قد أشاروا إلى وجودهم في منطقة الفرات الأسفل. كذلك في "حديثة" قرب الأنبار؛ فهذه المدينة، المقامة على جزيرة في وسط الفرات والمحصنة بحصن منيع، كانت تقع

* (لعل الكلمة المقصودة هي أنصار) فنصيري تصغير لنصير مفرد أنصار (المترجم).

^١ -المكتبة القومية [مخطوط بالعربية رقم ١٦٨٥: أولا اللفظة نصيرية تصغير لفظة نصاره ومفردها نصيري... فهذه الطائفة أصلا من قبائل بلاد الحجاز فحصل عليهم اظهار (اطهاران: ms) اياما ظهور الرسول محمد.] (هذه الصيغة وردت هكذا في النص الأصلي)

على الطريق الذي يؤدي من سوريا إلى بلاد فارس^١؛ كما أن البلد الواقع بين واسط والبصرة كان يضم نصيريين^٢.

بيد أن هذه النقاط المنعزلة لا يمكنها أن تكون وطنًا أصليًا. إنها تفرّعات، بعيدة عن النواة السورية المترابطة، حصلت إمّا بالهجرة وإمّا بالتحول الديني، فقد كان المبشرون النصيريون يبذلون نشاطًا ملحوظًا شهدت عليه مخطوطات الدروز، كما دلّ على ذلك أنهم اجتذبوا في وقت من الأوقات سگان حمص لاعتناق عقيدتهم.

^١ - ياقوت "معجم" ج ٢ ص ٢٢٣: "فيما كان أحد المسافرين في طريق عودته من سوريا دخل المدينة للراحة، ولما تبين أن اسمه عمر كاد رجال المنطقة أن يقتلوه، ولم ينج إلا بعد أن ادعى أنه من أنصار علي. يكن النصيريون، في الواقع، بغضًا شديدًا لأبي بكر، وعمر، وعثمان.

^٢ - ياقوت "المعجم" ج ٣ ص ٢٧٥؛ سنعود إليه لاحقًا.

نظرية بلين Pline

والحق أن ما يرفع الشكوك المتبقية حول موطن النصيريين إنما هو مقطع للمؤرخ اللاتيني "بلين Pline" في كتابه "التاريخ الطبيعي"، ففي تعيينه المدن في (سوريا المجوفة - la Coelé-Syrie) التي مرّ بها، يذكر "أفاميا" التي يفصلها نهر مارسيس (العاصي) Marsyas عن ولاية "نازيريني" (tetrarchie* de Nazerini^١). ولا يمكن تعيين أدق لإقليم النصيريين من الذي يحمل Nazerini "نازيريني" اسمه^٢. إن شهادة بلين – والتي أكدها سوزومان

^١ - بلين: "التاريخ الطبيعي" ج ٨١ "أفاميا في سوريا المجوفة التي يفصلها نهر مارسيس (العاصي) عن رباية نازيريني"

*. قسّم الإمبراطور الروماني "ديوكليتانيوس" الإمبراطورية الرومانية إداريًا إلى أربعة أقاليم ربعية quatre tetrarchies يحكمها مجلس من أربعة أباطرة كل إقليم منها يحكمه أحد أعضاء المجلس tetrarque (المترجم) (خريطة - ١٤) ^٢ إن ما سجله بلين ممتاز. ينتج منه المثل الموازي تمامًا لنصراني = نسبة إلى الناصرة. وإزاء الشك الذي أبداه الأب لامنس في مقالاته النصيريون في "دراسات دينية"، عام ١٨٩٠، ص ٦ رقم ١، حول شهادة بلين فيتساءل إذا لم يكن هناك خلط مع النصراني الهراطقة. ولكن بلين يجيب بشكل قطعي: فهو لم يتكلم على

Sozomène كما سنرى لاحقاً – ثمينة للأخذ بها لأن بلين كان على اطلاع وثيق بالمنطقة. وهو يزودنا بالاسم القديم لجبال النصيرية وهو: "جبال بارجيلوس".^١

اعتماداً على ذلك فإن اسم نصيري سابق بزمان بعيد على محمد بن نصير، وسابق أيضاً على تسمية النصارى = المسيحيين. إنه لا يدل على اسم فرقة اسلامية ما، بل على شعب يعيدنا أول تنويه تاريخي باسمه إلى بداية التاريخ الميلادي، إلى حقبة كانت المعتقدات السورية-الفينيقية خلالها في أوج ازدهارها في هذه المنطقة.

يثبت وجود معبدتين كبيرتين، (مصدر السبتية وبوتوسي) في عمق بلد النصيرية، تأثير فينيقي "أراد" الذين سكنوا (أو احتلوا) البلد في زمن سابق قبل وصول

طائفة، بل على مقاطعة، ويضعها في الموقع الذي يقيم فيه النصيريون اليوم.

^١ – بلين التاريخ الطبيعي Hist. Nat., V ٧٨.

(ولكن "دوسو" لم يذكر كيف جرى انتقال اسم هذه الجبال إلى "جبال النصيرية") (المترجم)

الإسكندر إلى سوريا^١، إذ كان هذا الاحتلال يوفر الأمن على الطرق التي كانوا يسلكونها في تجارتهم مع وادي العاصي وبلاد ما بين النهرين.



(خريطة - ١٤ -)

الأمبراطورية الرومانية في القرن الثالث (م) مقسمة إلى أربع ربايعات وتأتي رباعية Nazerini ضمن الولاية الواقعة تحت سلطان ديوكليتانيوس

^١ - هذا ما بيناه في "مجلة علوم الآثار" Revue archéologique ١٨٩٧، ج ١ ص ٣١٦ و ٣٣٧-٣٣٨.

يُسجّل هنا اعتراض على قدر من الأهمية بصدد التشابه المطروح بين بلد "العلاشية"* وبلد النصيريين^١. من جهة أخرى، من المعلوم، من خلال نص مهم جدًا قدّم عنه م. غولينيشف^٢ M. Golénischeff مختصرًا مقتضبًا، أنّ بلد "العلاشية" كان بلدًا ساحليًا. بيد أنّ كل الساحل في بلد النصيريين كانت تشغله سلسلة من المدن المعروفة جيّدًا: "عرقه، سيميرا، أرواد، الخ." التي أجبرت بلد "العلاشية" على التراجع على أقل تقدير إلى مصب العاصي.

* لم يوضح "دوسو" موقع "العلاشية" بالضبط على الساحل السوري، وبعد البحث تبين أنّ هذا البلد يقع في جزيرة قبرص (المتّرجم). (خريطة - ١٥)

^١ - ماسبيرو Maspero، "تاريخ شعوب الشرق الكلاسيكي" ج ٢ ص ٥٨٣

^٢ - مجموعة أبحاث، ج ١٥، ص ٨٨. راجع ماكس مولر آسيا وأوروبا Max Muller. Asien und Europa, p ٢٦١ et ٣٩٤.

نظرية شانتر Chantre (الأنثروبولوجية) والتعليق عليها

ليس لدينا حتى الآن نص يفيدنا عن النصيريين في مرحلة ما وراء التاريخ الميلادي. فقد حاول "السيد م.أ. شانتر M. E. Chantre" أن يحدّد موضع النصيريين من المنظار الأنثروبولوجي، فتوصّل إلى إقرار السمات العامة والثابتة التالية:

أولاً: معدل طول القامة ١٦٨ سم للرجال و ١٦١ سم للنساء.

ثانياً: إنهم مفتولو السواعد وأشدّاء.

ثالثاً: بصورة عامة رؤوسهم مفلطحة (يتساوى طول الجمجمة مع عرضها). يوجد لدى عدد كبير منهم آثار على رؤوسهم من الضغط الأمامي - الخلفي، ناتجة عن تأثير الضغط البطيء والثابت للتقسيط. وهناك أيضاً انحراف آخر في الناحية اليسرى من القذال (مؤخرة الرأس) مألوف لديهم يشترك معهم فيه عدد كبير من السوريين المعاصرين وكان عند الفينيقيين القدماء، ويبدو أن ذلك يعود للطريقة التي يُنبت الأطفال بها في أسرّتهم^١.

^١ - أ-شانتر "محفوظات البعثات العلمية والأدبية E. Chantre" Archives

"des Missions scientifiques et littéraires" ١٨٨٣ ص ٢٢٧

وأما الحدّ الذي بلغه شانتر حتى لم يعد بوسعنا متابعته في آرائه فهو حين يُطلق العنان لاستنتاجاته فيُسلّم بأن "الأكراد والأنصارية (النصيرية) يكوّنون تفرّعين من ذاك العرق الإيراني الذي انفصلوا عنه منذ زمن بعيد"^١.

نقد نظرية شانتر

على كل حال، فإن "شانتر" نفسه أبدى تحفظًا على هذه الاستنتاجات بسبب العدد القليل جدًّا للمعاينات التي أجراها، ويجب أن يُلاحظ أيضًا أنّ تلك المشاهدات لم تجرِ إلا في أنطاكية حيث مجموعة السكان تلقّحت من زمن بعيد باختلاطات أرمنية وكردية.

ولكن، خارج هذه الانتقادات التفصيلية، فإنّ طريقة القياسات البشرية، كما يمارسها الأنثروبولوجيون، هي التي تبدو لنا معيبة.

إذ عندما تقدّم القياسات فوارق هامة - وهذه هي الحالة الراهنة- فلا يصح مطلقًا الأخذ بالمعدّل الوسطي واعتماده حالة عامة.

^١ - المصدر نفسه ص ٢٣٦

في البحث عن إقرار قانون، لا يؤخذ المعدّل
الوسطي لسلسلة من المقاسات إلا لتجنّب أخطاء التجربة أو
لتخفيفها. وفي الحالة التي نحن بصددّها ليست الفوارق
نتيجة أخطاء تجارب، بل إنها تدل، بكل بساطة، أن ليس
هناك من قانون في هذا الشأن.

إضافة إلى ذلك - اعتبارًا للتطوّر والتزاوجات -
كيف يمكن الإقرار في الحالة الحاضرة بقراءة شعبين "قد تم
انفصالهما منذ زمن بعيد عن الجذع المشترك؟" نحن إذًا
مجبرون، للعودة إلى المتابعة في معرفة النصيريين بما
يفوق نص "بلين"، أن نؤسّس فقط على اعتبارات تاريخية
ودينية.

المناطق والقلاع والأطلال
التي أشير إليها في القسم الأول



١- أنطاكية : صورة أنطاكية مأخوذة من قمة جبل سلبوس

١ - أنطاكية تقع أنطاكية في شمال غربي سوريا، يحدها شرقاً جبل سلبوس الذي يُعد جزءاً من الجبل الأقرع، وغرباً نهر العاصي وتبعد عن شاطئ المتوسط حوالي ٢٥ كلم، وهذه الصورة مأخوذة من جبل سلبوس الذي يطل على سهل العاصي.



٢- جبل الأقرع يقع في أقصى جنوب لواء اسكندرون بالقرب من مدينة كسب، كان ضمن الأراضي السورية حتى عام ١٩٣٩، يطل مباشرة على البحر الأبيض المتوسط ويبلغ ارتفاعه ١٧٣٥م. يتميز هذا الجبل بأنه أجرد من الأشجار في منطقة معروفة بغاباتها وأشجارها الكثيفة. يكتسب منذ أقدم العصور صفة دينية أشير إليها في نصوص رأس شمرا وأوغاريت إذ كان يُدعى "صفن" أي الشمال وهو المكان المقدس حيث يقيم الإله بعل. في الحقبة الهلينية سمّي جبل كازيوس نسبة إلى الإله زيوس وأصبح اسمه في العصر الروماني "جبل كاسيوس".



٣- صهيون قلعة

صهيون، أو قلعة صلاح الدين، إحدى قلاع جبال الساحل السوري؛ تقع شرقي مدينة اللاذقية، قرب مدينة الحفة، وترتفع ٤١٠ م عن سطح البحر. يبلغ طول محيطها ٧٤٠ م، أما مساحتها فتزيد على ٥ هكتارات. قيل فيها إنها ربما كانت أجمل نموذج لفن العمارة العسكرية. كانت تابعة

لسلطة أرواد في عهد اليونان وكلمة صهيون مأخوذة من الإغريقية "تسيغون". استولى سيف الدولة الحمداني على القلعة واتخذها حصناً من حصونه. احتلها الفرنجة في الحروب الصليبية ثم حررها صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٨ وتخليداً لذكراه دُعيت القلعة "قلعة صلاح الدين".

جبل الأكراڊ



٤- جبل الأكراڊ يقوم هذا الجبل في شمال اللانقية الشرقي بمحاذاة جبل التركمان شمالا والحفة غربا يتبع القسم الأكبر من مساحته إلى اللانقية وتدخل مساحة صغيرة منه في نطاق محافظتي حماه وادلب. يتراوح ارتفاعه بين ٣٠٠م و١٥٠٠م. مشهور بغابات الصنوبر والأرز والبلوط والسنديان. أغلب سكانه من الأكراڊ.



- ٥ - صافيتا



٣ - وادي التيم واد طويل وخصب تغطي مساحته السفوح الغربية لجبل الشيخ في جنوب لبنان الشرقي. يربط الجنوب اللبناني بالبقاع ويمتد من راشيا الوادي إلى مرج الزهور وحاصبيا وكوكبا، يروي سهوله نهر الحاصباني. يرجع اسمه إلى قبيلة التيم التي هاجرت من الجزيرة العربية واستوطنت سفوح جبل الشيخ في القرن الخامس للميلاد.



آثار كنيسة في جبل الأعلى



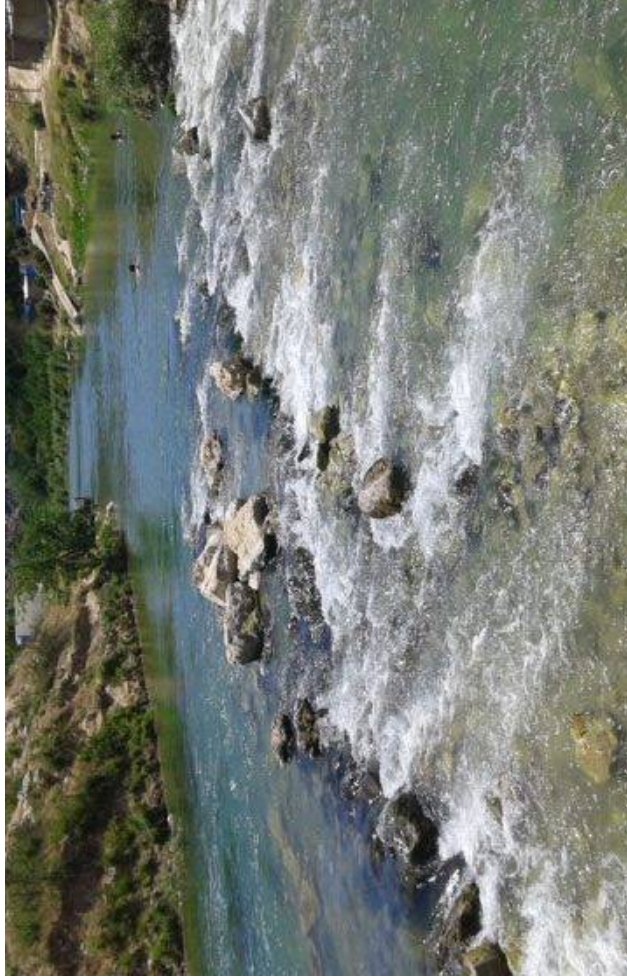
- ٧ - آثار في جبل الأعلى

- **جبل الأعلى** يقع جبل الأعلى شرقي مدينة حارم في محافظة ادلب ويبلغ ارتفاعه ٨٣٤م عن سطح البحر ويبعد ٥٠ كلم عن مدينة ادلب؛ سفوحه مغطاة بأشجار السرو والصنوبر والزيتون وغيرها من النباتات الطبيعية. يحتوي الجبل آثارًا بيزنطية منها كنيسة قلب لوزة الرائعة والتي تُعتبر لأولوة جبل الأعلى.



سهل الروج

٨- سهل الروج هو سهل فسيح في القسم الغربي من محافظة ادلب، يُعد امتداداً لسهل الغاب من الشمال. يشكل خسفاً متسعاً في الأرض محاطاً بمرتفعات جبل الزاوية وسلسلة جبال حارم (جبل الأعلى والوسطاني وباريشا)، تبلغ مساحته ١٣١٠٠ هكتار. جاءت تسميته من الفرنسية نسبة إلى لون تربته الأحمر الداكن.



٨ - ري سهل الروج





- ٩ -
بلدة عين فيت وعين الماء فيها

٩- عين فيت تقع قرية عين فيت إلى الشمال من المنحدر الغربي للجولان، اسمها آرامي ويعني العين البهية الجميلة. كانت تتبع إدارياً لبلدة مسعدة في محافظة القنيطرة التي تبعد عنها ٦,٥ كلم، وتبعد مدينة القنيطرة ٢٣ كلم. تهدمت في حرب ١٩٦٧ وهجرها أهلها.



- ١٠ -

مدينة القدموس وقلعتها

١٠ - القدموس بلدة سورية تابعة لمحافظة طرطوس، تبعد ٦٥ كلم عن مركز المحافظة، تقع على الطريق الجبلي الواصل بين بانياس ومصيف. تعود تسميتها إلى التراث السوري- الفينيقي نسبة إلى قدموس ابن أجينور ملك صور، إذ طلب منه أبوه ان يبحث عن أخته أوروبا التي اختطفها كبير الآلهة الإغريق زوس، فمضى قدموس إلى الساحل السوري ومنه انطلق إلى بلاد الإغريق ولكنه لم يعثر على أخته.



- ١١ -

مدينة مصياف وقلعتها عام ١٩٣٦ م

١١- مصياف مدينة سورية في محافظة حماه، تبعد ٤٥ كلم عن حماه إلى الغرب، تحيط بها مجموعة جبال أهمها جبل المشهد الذي يبلغ ارتفاعه ١٠٢٧ م عن سطح البحر. تأخذ المدينة موقعًا متوسطًا بين الجبال الساحلية والسهول الداخلية. تتمتع المدينة المشرفة على سهل الغاب بموقع استراتيجي مميز ومناخ صيفي لطيف. إعمارها قديم وهي مشهورة بقلعتها الأثرية.



قلعة مصياف

٢٩- قلعة مصياف تقع القلعة في مدينة مصياف، وهي الآن عبارة عن أطلال قلعة أثرية في مصياف. يميل الاعتقاد بأن بناءها الأول حصل في العهد الروماني ثم احتلها البيزنطيون في ما بعد. كانت حصناً عربياً أقيم على طراز القلاع البيزنطية. رمت مراراً في العصرين الأيوبي والمملوكي. تمتاز بأهميتها التاريخية خاصة في العصر الروماني لكونها في وسط طريق هاملهذه الامبراطورية.

قامت مؤسسة الآغاخان للثقافة بجهود مباشرة أثمرت عن ترميمها وتأهيلها.



١٢- آثار أفاميا

١٢ - أفاميا تقع المدينة الأثرية أفاميا في سهل الغاب في محافظة حماه على بعد ٥٥ كلم إلى الشمال الغربي من مدينة حماه، وإلى جانبها حصن قديم بمثابة حامية لها، وهو قلعة المضيق. أطلقت عليها أسماء مختلفة منها بارنوكة، وفارماكية، وبيلا ولكنها استقرت في ما بعد على اسم أفاميا وهو الاسم الذي خلعه عليها سلوقس نيكاتور نسبة إلى زوجته.

القسم الثاني

النصيريون

منذ الحقبة الرومانية حتى فتوى ابن تيمية

الفصل الأول

النصيريون منذ الحقبة الرومانية حتى الحروب الصليبية

في بداية انتشار المسيحية

ما زال تاريخ النصيريين قبل الحقبة الرومانية خافيًا علينا: إنه يمتزج بتاريخ فينيقي الساحل. كان النصيريون، في القرن الأول للميلاد يتجمعون في ولاية رُبعية* رومانية *tétrarchie* ما يدل على درجة معينة من الاستقلال عن الساحل الفينيقي؛ ثم راحت سلطة أَراد (أرواد) تنهوى بسرعة فاحتلت اللاذقية وسلوقية السورية*^١ مرفأها، ومع ذلك فقد كان الأَراديون* ما يزالون يمتلكون قسمًا كبيرًا من الأراضي في جبل النصيرية.^١

* سبق شرحها في نظرية بلين.

* اسمها اليوم "السويدية" وهي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط على مسافة ٢٨ كلم جنوبي غربي انطاكية انظر " تاريخ الموانئ" ج ٢ ص ٣٣١ الأب بطرس ضو. (المترجم)

* لم نجد تحديدًا جغرافيًا لمدينة أَراد إلا في "دائرة المعارف" التي أصدرها فؤاد أفرام البستاني حيث دمج لفظتي " أَراد" و"ارواد" (المترجم).

^١ - سترابون، ١٤، ٢، Strabon XVI,

هذا الوضع الشبيه بالاستقلال أتاح للنصيريين أن يحافظوا على معتقداتهم على الرغم من سيطرة المسيحية؛ فالإغفاءات الممنوحة لمعبد "بوتوسيبي" * Boetocécé التي أكّدها الأباطرة الرومان أقرّت ببقاء ممارسة المعتقدات السورية- الفينيقية داخل حرم هذا المعبد بإجلال في القرن الرابع(م).^١ لم يقتصر الأمر على بقاء هذا المعبد قائماً، لم يلحق به دمار، وبقيت ممارسة الطقوس في داخله، وبذلك كان أحسن حظاً من معبد "Aphaca"، بل تبين أنّ النصيريين نزلوا من جبالهم في أواخر القرن الرابع ومدّوا يد العون لوثنيي أفاميا في نضالهم ضد المسيحيين.^٢

منذ تلك الحقبة بدأ الخلط بين اسمهم واسم النصارى، وهذا ما وسمهم باسم "الجليليين" الذي نجده متداولاً عند

* المعروف بحصن سليمان حالياً (المترجم).

^١ - وادينغتون "مدونات إغريقية عن سوريا Wadington" Inscriptions grecques de Syrie n ٢٧٢٠a (خريطة- ١٦)

^٢ - سوزومان، VII ١٥, Sozomène, يتضمن النص (باليونانية): مجموعة من الجليليين من مناطق من لبنان. من غير المعقول أن يطالب جليليون، مسيحيون مطران أفاميا بالمحافظة على الأصنام. لا بد أن المقصود من ذلك النصيريون أو النازيريني Nazerini الذين خلط سوزومان بينهم وبين النصارى. يجب أن يفهم أن النص الإغريقي يعني النصيريين. عموماً كان يُطلق اسم لبنان، في تلك الحقبة، على كل الجبل الذي يحاذي الساحل من صيدون حتى أنطاكية. يعطي هذا النص تأكيداً مهماً لما جاء عند بلين حول النازيريني Nazerini.

الجغرافيين العرب، ولكن بشكل آخر؛ فهؤلاء الجغرافيون كانوا يطلقون اسم جبل الجليل على المرتفعات المواجهة لحمص وخاصة تلك التي يقع عليها حصن الأكراد^١ (قلعة الحصن). يزعم ياقوت أن هذه الجبال هي امتداد لجبال الجليل^٢ من دون أن يعرف السبب في ذلك، وعلى الرغم من أن هذه التسمية لم تتسرّب إلى داخل المجتمع النصيري، إلا أن ذكرها ما زالت مستمرة حتى هذا القرن^٣، ولا نرى داعياً للتوقف عندها.

^١ - أبو الفداء ص ٢٥٩، اصدار "رينو ودو سلان Reinaud et de Slane". ياقوت "المعجم" ج ٢ ص ٢٧٦. يؤكد الضاهري هذا الأمر بطريقة غير مباشرة بتعدادة: "بعد صهيون، قلعة المرقب، حصن الأكراد، وقلعة قدموس، فاللانقية، ثم جبلة، وعرقه، وحصن عكار، ثم يذكر حصن الجليل "الذي لا يمكن أخذه بالقوة وهو من دون اقليم؛ بل تابع لطرابلس" ويتابع التعداد بالكهف، والرصافة". اصدار رافيس Ravaisse ص ٤٨

^٢ - ياقوت "المعجم" ج ٢ ص ١١٠

^٣ - جاء في مقالة الراهب برتران Bertrand: "مار يوحنا المعمدان في القاموس الشامل، التاريخي والمقارن لكل الأديان في العالم"، والتي تناول فيها الصائبة المعروفين بنصاري القديس يوحنا : "ما يزال هناك جماعة، بعد أن طردها الأتراك من ضواحي القدس وطبرية، نزحت والتجأت في المرقب، شرقي جبل لبنان، حيث ما تزال الأجيال المتعاقبة المتحدرة منهم موجودة حتى الآن. وهؤلاء أنفسهم يُدعون جليليين، وهم ليسوا يهوداً ولا مسيحيين؛ ولكن حسب ما هو مأثور عنهم أنهم يجُلون مار يوحنا المعمدان." هذه النبذة مستوحاة من ملاحظة للأسقف جرمانوس كونتي Germanus Conti، معاون البطريرك الماروني،

لم يتم انتصار المسيحية في سوريا من دون مقاومة عنيفة. كثيرون لم يستسلموا إلا بفعل الإرهاب، أمام انهيار الهياكل وتدمير تماثيل الآلهة. استمرّت الوثنية حتى مرحلة متقدمة من القرون الوسطى^١.

كان النصيريون في جبالهم في مأمن من الاضطهادات، لكنّ بعضاً فقط من بلداتهم المتاخمة للسهل كـ"مريمين" لم تتمكن من مقاومة الاجتياح المسيحي. وهذا ما يفسّر لنا الغياب الكامل، في تلك الجبال، للكنائس المقامة على الطراز الذي كان سائداً في القرون الخامس والسادس والسابع، والتي يوجد منها بوفرة في المناطق الأخرى من

التي نشرها نوربرغ Norberg (مخطوطات نصرانية Codex Nasaræus, Londres, ١٨١٥, t. ١, p. VI, n. ١٦). يُلاحظ وجود تعيين أكثر دقة للمرقب. كما نلمس في الأوساط المارونية أنهم يعتبرون النصيريين مهاجرين من الجليل. وهؤلاء بدورهم كان لهم يد في المساعدة على ترويح هذه الأسطورة، إذ يدّعون بأنهم وفدوا من الاسرائيليين وجعلوا من السامرة مركزاً مهماً لعقيدتهم، ولكن لم يرد في أي محل تسميتهم جليليين. أما التقارب مع مسيحيي مار يوحنا المزعومين فيمكن أن يكون مستوحى من بعض الطقوس التي سنأتي على ذكرها لاحقاً، والتي لممارسات الوضوء دور فيها.

^١ - راجع "مخطوطات الشرق اللاتيني Archives de l'Orient latin" ج ٢ ص ٣٧٥

سوريا.^١ وحتى أيامنا هذه يجتمع النصيريون في أيام معينة من السنة حول "قبة، أو مزار"، إذ ليس لديهم أماكن عبادة للجماعة، كـ"الكنيس" اليهودي، أو الكنائس، أو الجوامع.^٢ وبذلك هم يحتفظون بتقاليد قديمة، فالمعابد الفينيقية- كذلك

^١ - الأب لامنس مقالة "النصيريون"، مقتطف من "دراسات دينية Etudes religieuses" عام ١٨٩٩، ص ١٠. وما بعدها، "بل على العكس لقد فوجيء بوفرة الآثار المسيحية". تفسر ذلك أن الأب لامنس لم يمر إلا بالمنطقة الجنوبية، محيط صافيتا، البقعة التي كان يحتلها البيزنطيون والصليبيون. ويقول الأب لامنس "ما من بلدة قديمة إلا ويوجد فيها بقايا كنيسة". يحسن التوضيح، لأن النقاط الثلاث المشار إليها متاخمة لمحيط مسيحي. ما نستطيع أن نؤكد أنه داخل البلد لا يقدم أي أثر مسيحي مهم. فلو انقلب النصيريون إلى المسيحية في بداية القرن الخامس، كما يعتقد الأب لامنس، لكانت بلادهم مغطاة ببقايا الكنائس. فالبعثات التي أوفدها القديس "جان كريزوستوم" حققت مهمتها بنجاح في جبل ربحا، وجبل العلا، وجبل سمعان، وهذه المناطق تكتظ أيضاً بالآثار المسيحية الإغريقية العائدة للقرون الخامس، والسادس، والسابع، وأما بالنسبة إلى من شاهد ذلك الإزدهار المدهش للفن المسيحي، - وهو يشكل نقطة انطلاق ما ندعوه الفن البيزنطي - فالمقارنة ليست مفيدة فحسب، ولكنها حاسمة. راجع Amédée Thierry " (Revue des deux Mondes) - مجلة العالمين حزيران ١٨٦٩ ص ٨٤٥-٨٤٦ وكانون الثاني ١٨٧٠ ص ٥٢-٥٦) "أيضاً : de Vogüé, Syrie centrale, architecture civile et religieuse du premier au VII siècle Paris ١٨٦٥, ٢vol فن العمارة المدنية والدينية من القرن الأول حتى السابع"، باريس، ١٨٦٥، مجلدان.

^٢ - برلين، المكتبة الملكية، مخطوط رقم ٤٢٩١: "والنصيرية ليس لهم معابد مثل الإسلام والنصارى بل إنهم في كل مدة يجتمعون في بيوت معلومة لهم وهذا الجمع يسمونه عيد

معبدًا بوتوسييسي Boetocécé وماراثوس Marathus - لم تكن تحتوي، فعلاً، مساحات مغطاة (مسقوفة)، إلا لبناءٍ صغير (كشك) صالح لحفظ الأدوات اللازمة لتأدية الشعائر. بقيت الوثنية أيضاً، – ولزمن أطول مما كانت عليه عند النصيريين – في منطقة مجاورة، لدى سكان "حرّان"، حيث نظّمت المقاومة للمسيحية مدرسة فلسفية شهيرة^١، التي من المفترض أن يكون لها دور فعال جداً في إحياء العقائد القديمة دلّ عليه رواج الإسماعيلية. غير أن هذا الدور يكتنفه، مع الأسف، غموض شديد. إن الوثائق التي وصلتنا عن معتقدات الحرّانيين ذات فائدة جليّة لإثبات التقارب بين معتقدات النصيريين الحاليين والمعتقدات القديمة السورية - الفينيقية.

^١ - راجع الصفحة البليغة التي كتبها "أبو الحسن" المحفوظة لدى "Bar-Hebræus، بار هيرأوس" أخبار سورية، ص ١٧٦-١٧٧.



خريطة -١٦-

لا تقدم الحقبة البيزنطية لنا أية معلومة مفيدة عن النصيريين سوى أنهم لم يعتنقوا المسيحية. وفي القرن السابع اقتحم العرب سوريا، واستولوا على المدن الكبرى، واحتلوا وادي العاصي والساحل، ولكن يبدو أنهم لم يدخلوا الجبل.

أما الغزاة: البيزنطيون أو العرب، وقديماً المصريون والأشوريون، وبعدهم الصليبيون، فقد اكتفوا باحتلال بعض النقاط الاستراتيجية التي كانت تؤمن سيطرتهم المعنوية والأمن على الطرقات^١؛ فقلعة الحصن* التي تسيطر على وادي النهر الكبير الجنوبي la vallée de l'Eleuthère، كانت موقعاً قوياً معروفاً باسم شابتونا Chabtouna في زمن رمسيس الثاني؛ ومريمين Mariamin التي تُشرف على العاصي، احتلها المصريون والفينيقيون؛ وصهيون Sahyoûn، وكانت وكرًا منيعاً يمكن منه قطع الطريق بين اللاذقية وحلب، استحوذ عليها على التوالي الفينيقيون

^١ - إن تأريخ ووصف هذه المواقع المنيع لا يدخلان في موضوع هذا البحث، لأنها لم تكن من بناء النصيريين ولا هم احتلوها. بل إنها تشكّل مع الساحل، الذي لا ترتبط به إلا لجهة التبعية والخضوع موضوع دراسة خاصة عنوانها: "فينيقيا الشمال".

(سيغون الأرياني)، والبيزنطيون، والصليبيون، وأخيرًا المسلمون^١.

الحرب الصليبية الأولى

بيد أن النصوص التي تناولت هذه المناطق القوية لم تفصح شيئاً عن النصيريين، فكان لا بد لنا من أن نصل في تعقبنا إلى نهاية القرن الحادي عشر لنجد ذكرهم في رواية عن الحملة الصليبية الأولى.

استولى الفرنجة، بعد انطاكية، على المعرة حيث أقاموا حتى بداية العام ١٠٩٩؛ وجاء في أخبار سورية "...ومن هناك (أي المعرة) زحفوا إلى جبل لبنان حيث قتلوا عددًا كبيرًا من الناس، المدعوين نصيريين. ثم أقاموا في عرقه وفي منطقة طرابلس^٢. " سلك جيش الفرنجة في هذه الحملة اتجاهًا معاكسًا للطريق الذي اختاره "تيطس" عندما انطلق من عرقه إلى رفنيه Raphanée،

^١ - راجع "مجلة علم الآثار Revue archéologique عام ١٨٩٧ ج ١ ص ٣٥٧-٣٠٥

^٢ - بار هيبيرالوس Bar -Hebraeus " أخبار سورية Chronique syrienne" ص ٢٨١ ويرشتاين Bernstein في Chrestom ص ٥٦

وهي طريق مهمة جدًا في العصور القديمة وملحوظة في جدول "بوتنجر Peutinger".^١

كان يقود ذلك الفيلق رايموند Raymond،
—"الكونت دو سانت جيل comte de Saint-Gilles"—
وبعد اجتياز العاصي عبر "مخاضة" قرب شيزر، وصل
دون شك إلى حماه؛ لكنه كان حذرًا فتجنب التعرّض
لحمص، ذات الكثافة العربيّة القويّة، ثم تابع سيره غربًا،
ربما حتى مصيف، ومن هناك توجّه إلى رفنيه
Raphanée التي هرب أهلها، ثم قصد جبل النصيرية
"عبر جبل شاهق وشاسع" immensam montaneam
"per altam et

وهكذا فتح طريقًا في وادٍ يُسمى "البقية"، في أسفل
حصن الأكراد (قلعة الحصن لاحقًا) الذي احتلّه، ثم تابع
سيره ليستقرّ أمام "عرقه"^٢ تصدّى النصيريون بشراسة

^١ - جوزيف Joséphe، "De Bello jud" ١، ٥، VII راجع أيضًا مجلة علم الآثار، ١٨٩٧، ج ١ ص ٣١٨

^٢ - ورد سرد هذه الأحداث في رواية دقيقة جدًا في Anonymi Gesta Francorum نشرها هاجنماير Hagenmeyer، ١٨٩٠ ص ٤١٣-٤٢٣.
ص ٤١٣، Marra = معرة النعمان؛ ص ٤١٤، Capharda = كفرطاب؛
ص ٤١٥، Cesarea = شيزر؛ ص ٤١٦، fluvius Farfar = نهر العاصي؛
ص ٤١٧، in vallem quondam subter quoddam castrum = ربما
ص ٤١٨، pervenimus gaudentes hospitari quoddam
Arabum castrum = ربما مصيف؛ ص ٤١٨، Kephalia، أو Rephalia

لزحف ذلك الجيش في محاولة لإيقافه، وقد وصفهم
الراهب* "بورشارد دو مون - سيون 'Burchard de
Mont- Sion بعد قرنين بقوله:

"gens effera et maliciosa et Christianis
infesta" "إنهم قوم أشداء وأشرار ومعادون
للمسيحيين"

ولكن رايموند تمكن من قهرهم وبلغ هدفه ولم يجد
عناء في حملهم على الفرار.

يركز صاحب "Gesta Francorum - أحداث
الفرنجة"^٢، المجهول، على الوفرة في الموارد التي ينعم بها
البلد والتي تمتع بها جيش الفرنجة فكانت لهم بمثابة معونة
ضخمة.

= رافانيه؛ ص ٤١٩، (Desen) أو in vallem Desem ربما حصن، البقعة
التي يسيطر عليها حصن الأكراد المعروف حالياً بقلعة الحصن.

* على الأرجح هذا الراهب كان رئيس دير "جبل صهيون" (خريطة - ١٧)

^١ - دار لوران للنشر Ed. Laurent ص ٢٩

^٢ - لأن هذا النص مجهول الكاتب



خريطة - ١٧ -

بعد ذلك سقطت المناطق المواجهة من قلعة الحصن إلى صافيتا فالعريمة والمرقب والعليقة ومانيقاه وصهيون والقصير وشعر البقاس وأبو قبيس وبعرين... الخ، أي كل مراكز القوة التي كانت تشكل حزاماً أمنياً لجبل النصيرية فبعضها سلّمت بسيطرة الغزاة وبعضها ظلت تقاوم حتى انهارت، حتى إن الأمير "تانكريد Tancrede" استولى على حصن "بكسرايل Bikisra'il"* في قلب الجبل ومن هناك راح يوجه الغارات على بلدة شيزر^١.

* * * * *

^١ - كمال الدين "مؤرخون شرفيون للحملات الصليبية" ج ٣ ص ٥٩٩.
* - لم نعثر على قرية اسمها "بكسرايل في جبال العلويين (النصيرية) بل هناك قرية اسمها بعزرائيل تقع في المنطقة التي يشير إليها "دوسو"، وبعد البحث في المصادر الأجنبية وجدنا اسمها في إحدى الخرائط وتبين أن قلعة بكسرايل المذكورة أصبح اسمها الحالي قلعة بني قحطان. (المترجم).

الفصل الثاني

النصيريون منذ نهاية الحروب الصليبية

حتى فتوى ابن تيمية

مرحلة صلاح الدين الأيوبي

فيما بعد حشد صلاح الدين هو أيضاً جنوده وأطلقهم إلى الجبل، وعندما استولى على جبلة (تموز - يوليو ١١٨٨) أتى وجهاء النصيريين لملاقاته وتقديم الولاء. أمر باحتلال "بكسراييل" لتأمين التواصل بين جبلة وحماء بسلوك طريق جبلي، والحق يقال، شاق جداً؛ وفي ذلك يقول ابن الأثير: "يُعدّ هذا الجبل من أقسى الجبال معيشة وأصعبها للعبور"^١. وبعد اجتياح اللاذقية، احتل صلاح الدين صهيون، وعائيد، وجماهرتين، وبلاطونوس*، وشغر-بقاس. وهكذا بات النصيريون رعايا سلطان مصر.

في تلك الفترة طرأ حادث على قدر كبير من الأهمية، ففي بداية القرن الثاني عشر، كانت طائفة

^١ - ابن الأثير "التاريخ الشرقي" ج ١ ص ٧١٩. راجع شهاب الدين، "كتاب الروضتين" ج ٢ ص ١٢٧. (خريطة - ١٨ + ١٩)
* بلاطونوس هي القرداحة حالياً (المترجم).

الإسماعيلية في مرحلة القوة وكان زعماءها يُقيمون في سلمية بالقرب من حماه، فدأبت تسعى للإستيلاء على قلعة ماء، في ظل الفوضى التي عمّت سوريا من جراء غزو الفرنجة. سقطت بانياس القريبة من دمشق في قبضتهم عام ١١٢٦. لكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها فيمّموا شطر جبل النصيرية حيث المقاومة أخف وطأة.

مرحلة النزاعات الإسماعيلية - النصيرية

هناك ذاعت شهرتهم باسم الحشاشين، وأسبغ مؤرخونا على زعيمهم صيًّا شعبياً باسم "شيخ الجبل". استولت هذه الطائفة أولاً على القدموس والكهف (١١٣٢-١١٣٣)؛ وبعد ثماني سنوات احتلوا مصياف، ثم الرصافة وقاهر بالقرب من مصياف، والعليقة ومانيقه بالقرب من المرقب وربما احتلوا المرقب بالذات والخابي والقلعة^١.

^١ - راجع دو فريميري Defrémery "أبحاث جديدة عن الإسماعيليين أو باطنية سوريا ١٨٣٧.

* لم يحدد "دوسو" تصنيف النصيريين الديني في هذه المرحلة، ولكن من الواضح أنهم كانوا مسلمين يُجلون الأئمة الإثني عشر بدليل بروز أحدهم منتحلاً صفة المهدي (المترجم)



كان النصيريون مجبرين على تحمل المعاناة من هذا الغزو. وإذا كان العدد الأكبر منهم يكتّون للإسماعيليين مشاعر الكراهية المتصلّبة^١، التي تركت آثارها حتى أيامنا، وحالت دون أي اندماج بين الطائفتين، فإن آخرين سعوا للإفادة من هذا العنصر الجديد. وبصورة خاصة فإن البريق الذي نشره اسم زعيم اسماعيلي، رشيد الدين سنان، في الخارج، شدّد العديد من النصيريين لاعتناق قضيته. وثمة رواية اسماعيلية تكشف لنا أن عشيرة بكاملها انضوت تحت لواء رشيد الدين في مصياف^٢.

يبدو أن هذا الزعيم الشهير كان له أثر كبير عند النصيريين ما حمل بعضهم على تقليده، فأصبح البلد فريسة اضطرابات هي الأكثر شراسة وبعداً عن المألوف. ومما يجدر ذكره مثلاً ظهور "مهدي" كان يحمل هذه الجموع البسيطة على الخروج ضد المدن المسلمة المجاورة. "كان

^١ - راجع ستانيسلاس غويارد Stanislas Guyard "قصة الإسماعيليين سيد كبير للحشاشين في زمن صلاح الدين"، مقتطف من "المجلة الآسيوية"، باريس ١٨٧٧، ص ١١٤-١١٥. يقول صاحب الرواية "ولكن من المعلوم أن النصيريين أعداء الزعيم رشيد الدين" والتاريخ يثبت ذلك.

^٢ - غويارد Guyard المصدر نفسه ص ١٢٤-١٢٧ سنعود إلى هذه الرواية لاحقاً.

يأمرهم أن يحملوا قضبان الريحان بدلاً من السيوف، ويعدّهم بأنها ستتحوّل إلى سيوف بأيديهم في أثناء القتال. انقضّ هؤلاء على مدينة جبلة، بينما كان رجالها منصرفين لإقامة صلاة الجمعة في الجامع. فدخلوا المنازل واغتصبوا النساء. خرج المصلون من مسجدهم وحملوا السلاح وقتلوا ما تيسر لهم من المعتدين. وصل خبر هذه الواقعة إلى اللاذقية، فجّهز حاكمها "باهادير عبدالله" كتائبه وزحف. ثم نقل الحمام الزاجل هذا الخبر إلى طرابلس فهب أمير الأمراء مع جيشه للمؤازرة.

لوحق هؤلاء النصيريون من كل جانب وقتل منهم نحو عشرين ألفاً. أما الذين بقوا على قيد الحياة فتحصّنوا في الجبال وفاوضوا أمير الأمراء كي لا يتعرّض لهم، وبأنهم مقابل ذلك يلتزمون بأن يدفعوا له ديناراً عن كل رأس. بيد أن خبر هذه الحوادث وصل إلى الملك الناصر بواسطة الحمام الزاجل فكان جوابه أنه سيعمل السيف في رقاب الأعداء. عندئذ ناشده أمير الأمراء للكف عنهم معللاً التماسه بأن هؤلاء الناس يفلحون الأراضي ويزرعونها للمسلمين،

وإذا أُبِيدوا فإن المؤمنين لا بد وأن ينتابهم الضعف الشديد.
اقتنع الملك الناصر وأمر بالعفو عنهم^١."

ربما كان هذا الحادث نفسه الذي يرويهِ لنا
المقريزي^٢ مضيئاً إليه تفاصيل مفيدة: "عام ٧١٧ هـ أي في
عهد السلطان المملوكي الناصر محمد، ظهر دجال من أبناء
بلدة قرطياوس، في منطقة جبلة، وكان يزعم أنه محمد بن
الحسن المهدي. كان يدعي أنه، فيما كان يفلح الأرض، دنا
منه طائر أبيض اللون، وأحدث ثقباً في جانبه، وأخرج
روحه، وأدخل فيه بدلاً عنها روح محمد بن الحسن^٣. جمع
هذا الرجل حوله حوالي خمسة آلاف من النصيريين،
الهرطقة الذين يؤمنون بالوهمية علي بن أبي طالب، وفرض
عليهم أن يسجدوا أمامه ويعبدوه، وهذا ما فعلوه من دون
عناء. أباح لهم الخمر، وألغى واجبات الصلاة وأعلن
صراحة بأن لا إله إلا علي وحجابه محمد.

^١ - ابن بطوطة "رحلات" ترجمة دو فريميري وسانغينيي، Defrémery et Sanguinetti ج ١، ص ١٧٨-١٧٩، حيث لم نغير إلا بعض الكلمات.

^٢ - كتاب السلوك ج ١ ص ٧٢١ ترجمة كاترمير Quatremère "مناجم الشرق"
ج ٤ ص ٣٧٥

^٣ - لا معنى لذلك إلا بسبب معتقد النصيريين بالتقمص. فالدجال كان تقمص
الإمام الثاني عشر عند الشيعة الذي ينتظر هؤلاء عودته كمهدي.

كانت الرايات الحمراء تخفق أمامه، وشمعة طويلة تبقى مضاءة في وضوح النهار. أما حاملها فكان فتى لم يُلْتَحِ بعد، عمد هذا الدجال إلى التعريف عنه بأنه ابراهيم ابن أدهم^١، الذي ادعى بأنه بعثه حيًّا. ثم خلع على أخيه اسم المقداد بن أسود الكندي^٢ وأعطى اسم جبريل لآخر. فكان يقول له: "اصعد إلى الله، أي إلى علي بن أبي طالب، وسله عن كذا وكذا." فيخرج الرجل فورًا، ويختفي للحظات ثم يعود ليقول له: "افعل ما تراه مناسبًا."

فاجأ هذا الدجال مدينة جبلة يوم الجمعة في العشرين من ذي الحجة، فذبح عددًا كبيرًا من أهلها وأسر منهم جمعًا غفيرًا، وأعلن جهرًا تعاليمه الكافرة وصبّ اللعنات على أبي بكر وعمر. إلا أن حاكمية طرابلس سيّرت ضده فرقة من ألف فارس، كان ينتظرهم بثبات، وقاتلهم بضراوة حتى خرّ صريعًا. لم تدم ثورته إلا خمسة أيام."

إذا كان الاحتكاك، الذي تحتم حصوله بين قسم كبير من النصيريين والإسماعيليين، أحد الحوادث التي نتج عنها أضخم الاضطرابات في المنطقة، فمن الخطأ ألا يُنقل عن

^١ - الولي المسلم الشهير المدفون في جبلة

^٢ - أحد الأيتام الخمسة عند النصيريين

تسرّب العقائد الإسماعيلية لدى النصيريين إلا من منتصف القرن الثاني عشر (استقرّ الإسماعيليون في المنطقة في الحقبة ١١٣٢-١١٣٣). إذ أن هذه العقائد صيغت وتكاملت منذ القرن التاسع مع عبدالله، ابن ميمون، وانتشرت بسرعة بواسطة مُرسّلين ناشطين^١. حوالي العام ٨٨٧م، تحول إلى هذه العقيدة "حمدان"، الملقب "قرمط"، الذي أسّس طائفة القرامطة القوية.

يعود الفضل في تأسيس السلالة الفاطمية إلى الإسماعيليين فاستطاعت الطائفة بسرعة أن تتخذ من مصر مركزاً وجعلته أقوى مراكزها. من هناك انبثقت الديانة الدرزية، تعديلاً للديانة الإسماعيلية لإجلال الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي غدا تجسيداً إلهياً.

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وفي بلاد فارس، تزايد عدد الإسماعيليين إلى حد كبير جداً، فأصبحوا في وضع يشكّل تهديداً لما هو قائم واستولوا على قلعة الموت* (Alamout). استدعت قوتهم تعزيز الحماية للعديد

^١ - ستانيسلاس غويارد Stanislas Guyard "سيد كبير للحشاشين في زمن صلاح الدين"، ص ١٣-٤.

* تقع قلعة الموت في آسيا الوسطى. (المترجم)

من الأمراء على امتداد العالم الاسلامي كله. هذه الحركة، السياسية بقدر ما هي دينية، التي هزت الاسلام وكان من ميزاتنا جميع الساخطين والمضطهدين، وجميع الذين في قرارة نفوسهم لا يقبلون ما يدين به الخلفاء، هذه الحركة ما كانت لتوفر النصيريين ببقائهم في اللامبالاة.

نجد في مخطوطات الدروز الدليل على أن الديانة النصيرية كانت قائمة قبل القرن الحادي عشر الميلادي، وأنها تختلف عن عقيدة الإسماعيليين. إذ أنّ حمزة، الرسول المبشر بالديانة الدرزية، ينقض مقالة نصيرية تحتوي كل مبادئ الطائفة. هذا النزاع الديني هو سابق بأكثر من قرن على استقرار الإسماعيليين في القديس والكهف^١.

كان تأثير الإسماعيليين سريعاً ولم يدم طويلاً، لا سيما وأن رئيس الطائفة في القرن التاسع، عبد الله، ابن ميمون، وأولاده الذين خلفوه، كانوا لاجئين في سلمية القريبة

^١ - وردت إشارة إلى النصيريين في مخطوطتين درزيين. أحدهما، نقض لعقيدتهم، كاتبه حمزة، يردّه سيلفستر دو ساسي Silvestre de Sacy إلى العام ١٨٠٠هـ، وعلى أية حالة لا يمكن أن يكون أقدم من ذلك، والآخر، بعده، بحث لبهاء الدين ويُسمى أيضاً المقتنى، في زمن لاحق قريب، حيث يُدرج النصيريين في عداد الطوائف الشيعية. راجع سيلفستر دو ساسي، "عرض لديانة الدروز" ص ٤٧١؛ ص ٦٨ وما بعدها؛ ص ٦٨٢ رقم ٢.

من حماه، وهي على بعد يوم مشياً من بلاد النصيريين. وإذا سعى أبناء الطائفة الإسماعيلية، فيما بعد، للبحث عن نقطة ارتكاز لهم في جبل النصيرية، فإن ذلك يعود لمعرفتهم بالمنطقة لأنهم عبروها في أثناء دعوتهم وانتشارهم.

على أية حال، لم يعد ممكناً أن يستقبلوهم بحفاوة في تلك المنطقة. فالديانة النصيرية كانت قد تكوّنت، مبتعدة جداً عن عقيدتهم ومحتفظة بجوهر الممارسات القديمة بأكملها. كان الإسماعيليون مضطرين للمفاوضة لشراء القلاع^١، معاقل أمراء مسلمين، أو أن يستولوا عليها بالقوة، على الرغم من مقاومة النصيريين^٢.

استحوذ الحشاشون وزعيمهم "شيخ الجبل" على قدر كبير من الأهمية في نظر الفرنجة منذ تلك الحقبة، وهذا ما يفسر إغفال المؤرخين والحجاج الغربيين ذكر النصيريين لحساب الحشاشين. وحده، "جاك دو فيتري Jacques de Vitry" تحدّث عنهم ببعض التفاصيل، وهي، على كل حال،

^١ - اشتروا من ابن عمرون، القدموس، فكانت أول نقطة احتلوها. (راجع مؤرخون شرقيون، ج ١ ص ٢١ و ٤٠٠)، وربما قلعة الكهف القريبة.

^٢ - راجع الهامش الثاني في الصفحة ٣٢: قصة الإسماعيليين ستانيسلاس دو غويار

غير دقيقة^١. ويرد ذكرهم عند ألبيري دو تروا فونتينين
Albérie de Trois-Fontaines باسم النوصوريت
Nossorite^٢. بورشارد دو مون-سيون Burchard de
Mont – Sion يُسمِّيهم "أوانيني Uannini من دون
إمكانية تفسير أصل هذه الكلمة^٣. هذه القوة الهائلة
للإسماعيليين التي كانت لفترة تهدد العالم الإسلامي، تبددت
في القرن الثالث عشر، فقد دمرها المغول في بلاد فارس،
وببيرس في سوريا، فقدت الطائفة قلاع الخواري، وعلّقة،
ومانيقا،... الخ. أراد ببيرس أن يغتنم الفرصة من انتصاره
بأن يعيد النصيريين إلى الإسلام فأرغمهم على بناء
الجوامع في بلداتهم، وفي الواقع بنوا جامعاً في كل قرية،
ولكن بعيداً عن دور السكن. يُخبرنا ابن بطوطة، الذي عبر

^١ - جاك دو فيتري Jacques de Vitry، دار Bongars للنشر، ص ١٠٦٢
سنذكر المقطع لاحقاً.

^٢ - ألبيري دو تروا فونتينين ج ٢٣ ص ٩٣٥، Albérie de Trois – Fontaines, dans Pertz, Monument
سنعود إلى هذا النص. .

^٣ - إن مطابقة أوانيني Uannini للاسم الذي أطلقه بورشارد على النصيريين لا
شك فيها. وقد أتى على ذكرهم مرتين (كرمالو)

^٤ - تجدد هذا الأمر، حسب ما جاء عند المقرئ، سنة ٧١٧هـ، "كتاب السلوك"،
راجع "كاترومير - Quatremère (مناجم الشرق - Mines de l'Orient) ج ٤
ص ٧٢٤. في الوقت عينه حرّم السلطان تعاليم الطائفة

المنطقة في أواسط القرن الرابع عشر، في هذا الشأن:"لا يدخلونها، ولا يعتنون بها، وغالبًا ما يبيتون فيها قطعانهم ودوابهم المخصصة لحمل الأثقال. وفي الكثير من المرات يصدق أن يقصدهم غريب، فيدخل الجامع ويؤذن للصلاة، فيجيبونه: (لا تنهق أيها الحمار سيصلك علفك)، وعدد هؤلاء كبير جدًا^١."

فتوى ابن تيمية

لدينا من تلك الحقبة قرار شرعي شديد الغرابة، هو فتوى ابن تيمية^٢، التي تُظهر مدى القلق الذي غاص فيه التشدد الاسلامي المنتصر حيال البدع النصيرية: "استولت هذه الطائفة الملعونة على جانب كبير من بلاد الشام، وهم معروفون، ومشهورون، متظاهرون بهذا المذهب في وضح النهار، وقد حقّق أحوالهم كلّ من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم ومن عامة الناس أيضًا في هذا الزمان،

^١ - ابن بطوطة "الرحلات" ج ١ ص ١٧٧

^٢ - راجع غولد تسايهر "في الظاهرية" ص ١٨٨ - ١٩٢ وشرابنر في ZDMG، ١٨٩٨، ص ٤٨٦ وما بعدها، وص ٥٤٠ وما بعدها. ولد ابن تيمية في حرّان في ١٢ ربيع الأول عام ٦٦١هـ، وعاش في دمشق حيث اكتسب بسرعة شهرة واسعة في العلم والتقوى.

لأن أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء
الإفرنج المخدولين على البلاد الساحلية. فلما جاءت أيام
الإسلام، انكشف حالهم وظهر ضلالهم، والابتلاء بهم كبير
جدًّا^١."

بدأت الحاجة لضبط حالتهم تظهر بشكل ملموس. إذ
تشير الأسئلة المطروحة على ابن تيمية إلى الرغبة القاطعة
بالانتهاء من أمر هؤلاء الكفار. إنهم يزودون المدن
المجاورة من منتجاتهم المتنوعة. فما حكم الجبن المعمول من
أنفحة ذبائحهم؟ وما الحكم في استخدام أوانيهم وملابسهم؟
أسئلة خطيرة استنزفت علم الشيخ تقي الدين ابن تيمية.
طبعًا، ذبائحهم نجسة لا تباح؛ وأما الجبن، فالآراء متباينة
والأمر متروك لتقدير كل شخص.

أعلن ابن تيمية موقفه بصراحة أقوى في أجوبته عن
الأسئلة الأخرى. فلا يجوز أن يُعقد زواج على امرأة منهم.
ولا يجوز أن ينكح المسلم مولاته إذا كانت نصيرية، ولا
اتخاذ زوجة منهم. ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا

^١ - ستانيسلاس غويار Stanislas Guyard "فتوى ابن تيمية عن النصيريين"
النص وترجمته، في المجلة الآسيوية، ج ١٨ ص ١٨٣

أن يُصلى على من مات منهم. وإذا استُخدموا وعملوا
المشروط عليهم، فلهم أجره المثل.

أثار تموضع النصيريين على أبواب سوريا مسألة
في غاية الدقة. هل يجوز تركهم على حدود دولة الاسلام
وانتدابهم على الدفاع عنها؟ أو استخدامهم على الحدود،
وفي القلاع والجيش؟ يجيب الفقيه المسلم عن ذلك بقوله إن
استخدامهم في ثغور المسلمين ضرب من الجنون ويُعتبر
بمنزلة استخدام الذئاب لحراسة الغنم. "لأن هؤلاء من أكثر
الناس خيانة بخصوص المسلمين وولاية أمرهم، ومن
أحرص الناس على فساد الملة والدولة، وهم من أحرص
الناس على تسليم الحصون إلى أعداء المسلمين. فالواجب
على ولاية الأمور شطبهم من الجيش وقطعهم من دواوين
المقاتلة لا بغزو ولا بغيره".^١

يُستنتج من هذه الفتوى أنّ النصيريين كانوا يلعبون
دورًا مهمًا في شمالي سوريا. فلم يقتصر دورهم على الإفادة
من الثروات الزراعية للبلد وتزويد المدن الساحلية؛ بل كانوا
متغلغلين بين المسلمين الذين كانوا يتزوجون منهم ويبدو
أنهم مضوا شوطًا أكبر في التساهل حتى أنهم كانوا يدفنونهم

^١ - ستانيسلاس غويارد Stanislas Guyard المصدر نفسه ص ١٩١

في مقابرهم. ولج النصيريون أيضاً مجال الوظائف
المأجورة، والجيش، حتى أنهم كانت تسند إليهم مهام الدفاع
عن بعض القلاع. ولكن المسلمين المتعصّبين انقلبوا ضدهم
ونزعوا منهم هذه الامتيازات المكتسبة بعد عناء كبير. وبعد
زوال القرامطة واسماعيلي سوريا وفارس كابد الذين بقوا
أحياءً من النصيريين وزر الأحقاد المتراكمة من جراء ما
ارتكبه أولئك. لقد شملهم استنكار ابن تيمية جميعاً، إذ
يقول: "هؤلاء القوم الموصوفون أعلاه المسمّون بالنصيرية،
هم وسائر أصناف القرامطة، الباطنية، أكفر من اليهود
والنصارى، ماذا أقول، بل أكفر من المشركين الوثنيين.
وضررهم على أمة محمد أعظم من ضرر الكفار المحاربين
مثل كفار الترك والإفرنج وغيرهم".^١

ويسترسل ابن تيمية في شرحه: "إذا سقطت السواحل
السورية في قبضة الإفرنج، وتحديداً من جهة النصيريين،
فمردّ ذلك أنّ هؤلاء (أي النصيريين)، كأعداء الدّاء
للمسلمين، كانوا مع النصارى على المسلمين".^٢

^١ - المصدر نفسه ص ١٨٥-١٨٦

^٢ - المصدر نفسه ص ١٨٧.

"من المؤكد أن هذا الشرح غير صحيح وأن الشكل المخاتل الذي قُدّم فيه يدل على أن الاتهام صادر عن سوء نية. فلقد رأينا أن الصليبيين الأوائل فرض عليهم صراع شرس ليفتحوا ممراً في جبل النصيرية. ولم يلمح أي مؤرخ من الإفرنج بمساعدة ذات قيمة كان النصيريون ليقدموها للصليبيين. إن شهادة الراهب بورشارد دو مون-سيون Burchard de Mont-Sion فيهم قاطعة، فهم "قوم أشداء وأشرار ومعادون للمسيحيين"^١ - "Gens effera et maliciosa et Cristianis infesta"

هذه الفتوى، التي نشرها ستانيسلاس غويار، تروي إخفاق الترويج للإسلام في المرحلة التالية لانتصارات بيبرس. ورداً على الأسئلة المطروحة لمعرفة ما إذا كان مباحاً لولاية الأمر بشن الحرب المقدسة عليهم (أي النصيريين)، وهل يجب على كل من عرف مذهبهم أن يشهر أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم وإظهار الإسلام بينهم، يجيب الفقيه المسلم بأحرّ عبارات التشجيع قائلاً "لا ريب مطلقاً أن الجهاد ضد النصيريين وإقامة الحدود عليهم

^١ - دار لوران للنشر ص ٢٩؛

* - المقصود بالمسيحيين هنا هم الصليبيون (المترجم)

من أعظم الطاعات المحببة عند الله ومن أكبر الواجبات الشرعية^١. "ومن ثم أعلن أن دماءهم وأموالهم مباحة.

لم يتمكن المتعصبون، الذين وجدوا في ابن تيمية سنداً شرعياً، من تحقيق مقاصدهم. فالنصيريون لم يكونوا متطفلين مطلقاً، ولا لاجئين يمكن طردهم، أو استيعابهم ودمجهم، ولا تدميرهم. إنهم السكان الأصليون وفائدتهم عظيمة للملاكين المسلمين، وهم الوحيدون الذين يجيدون العمل في المنطقة. وبعد أن تخلصوا من الإسماعيليين، الذين انحصر وجود من بقي منهم في القدموس ومصيف، عاشوا حياة مستقلة، الحياة العشائرية كما وجدناهم عليها في بداية هذا القرن.

^١ - ستانيسلاس غويار المصدر نفسه ص ١٩٧.

المناطق والقلاع والأطلال

التي أشير إليها في القسم الثاني



- ١٣ - حصن سليمان Boetocécé

١٣- حصن سليمان (Boetocécé) موقع أثري في سوريا على بعد ١٤ كلم من الدريكيش، هو كناية عن معبد قديم لبعل وعشثروت أقامه الأراديون (سكان أرواد) الذين كانوا يسيطرون جزء كبير من الساحل السوري. اسم المعبد القديم بوتوسيبي Boetocécé وباللغة الإغريقية "بيتو خيخي" إذ كان المعبد مخصصاً لعبادة الإله "بيتوخيخي". وقبل أن تتحول روما إلى المسيحية جدد السلوقيون والرومان المعبد

وبعد أن انتصرت المسيحية في سوريا بنيت في داخل الحصن كنيسة. أما الاسم العربي (حصن سليمان) فقد أطلقه السكان المحليون بعد الإسلام إذ أثارت حجارته الضخمة شعورهم بأن النبي سليمان أمر الجن ببنائه. يمتد بناء الحصن على مساحة واسعة ويأخذ شكل مستطيل باتجاه شمال جنوب، وينتصب هيكلم المعبد في أعلى نقطة من منتصف الحرم وهو مؤلف من ثلاثة أقسام ١- الحرم الكبير ٢- قاعة العبادة ٣- الحرم الصغير. على الباب الشمالي نقش كبير هو تثبيت من قبل الامبرطور فاليريان وغاليان للإمتيازات التي منحها ملوك سوريا للسكان بالسماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية الوثنية.



أفاميا

١٣- أفاميا: قلعة المضيق تميزت أفاميا بمكانتها الدينية المرموقة منذ القدم، تمثلت بمعبد الإله بعل – زيوس. وبعد انتصار المسيحية في سوريا أصبحت مركزاً لأسقفية كبيرة ترعى كثيراً من الكنائس والأديرة. تتربع قلعتها على هضبة من الجهة الشرقية لسهل الغاب ، محاطة بمياه العاصي وبعض البرك، يعطيها موقعها الإستراتيجي أهمية عسكرية كبيرة للدفاع عن المنطقة المحيطة بها، فموقعها في وسط سهول منخفضة فسيحة يؤمن لها سيطرة كاملة على سهل الغاب والمناطق المجاورة.

١٤- أنطاكية بعد وفاة الإسكندر المقدوني اتفق قادته على اقتسام امبراطوريته في ما بينهم، فكانت سوريا من حصة سلوقس نيكاتورالذي أقام مدينة كبيرة من مجموعة بلدات أسماها أنطاكية على اسم والده أنطيوخس. ازدهرت المدينة حتى أصبحت عاصمة الممالك السلوقية.

أ - ١ أول كنيسة في العالم تمتاز أنطاكية بأهميتها التاريخية والدينية إذ أقيمت فيها أول كنيسة في العالم في مغارة القديسين بطرس وبولس. ومن هذه المدينة انتشرت المسيحية إلى الغرب. وبعد استشهاد القديس اسطفانوس نزع المسيحيون من أورشليم إلى أنطاكية ومما يجدر ذكره أن تلاميذ السيد المسيح أطلق عليهم اسم مسيحيين لأول مرة في أنطاكية حيث أوفدت الكنيسة في أورشليم برنابا ليقود العمل التبشيري في أنطاكية فاصطحب بولس معه. ظهر في أنطاكية اثنان من أعظم قادة المسيحية هما اغناطيوس أسقف أنطاكية الذي استشهد في روما ويوحنا "فم الذهب". وحتى الآن يُطلق على رأس كل من كنائس الموارنة والروم

الأرثوذكس والروم الكاثوليك والسريان لقب بطريرك
أنطاكية وسائر المشرق. بلغها الفتح الإسلامي عام ٦٣٦م.

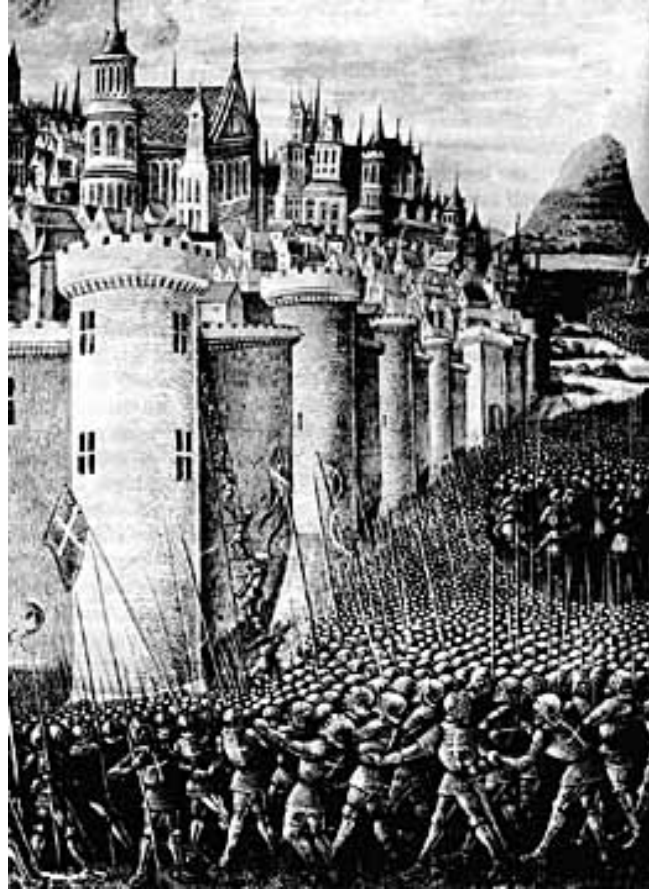


كنيسة القديس بولس في أنطاكية (أول كنيسة في العالم)



مذبح كنيسة القديس بطرس أول البطارقة الأنطاكيين

ب - ١ حصار أنطاكية أثناء الحملات الصليبية على
سوريا، وتحديداً في ٢١ تشرين أول عام ١٠٩٧ قام
بوهيموند بحصارها.



ب-٢ - سقوط أنطاكية استمر حصار أنطاكية ٨ أشهر
وسقطت في ٢ حزيران عام ١٠٩٨.



- ١٥

استيلاء Bohemund على أنطاكية سنة ١٠٩٨

١٥٥



حصن الأكراد - (قلعة الحصن) شابتونا Chabtouna
(اسم الحصن في زمن رمسيس الثاني)

١٥- قلعة الحصن Le Crac des Chevaliers تقع القلعة في

منطقة وادي النصارى (التسمية الرسمية وادي النضارة) التابعة إداريًا لمحافظة حمص، وتأتي في منتصف الطريق، تقريبًا، بين طرطوس وحمص. كان اسمها "حصن الأكراد" أي معقل الأكراد الذين شغلوها سابقًا؛ أقيمت على أنقاض قلعة قديمة يرتبط اسمها القديم "شابتونا" بالفرعون "رمسيس الثاني" عندما غزا المنطقة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. تُعد القلعة نموذجًا رائعًا للقلاع العسكرية المحصنة. استولى عليها "رايموند دو سان جيل

Raymond de Saint Giles " في الحملة الصليبية الأولى
عام ١٠٩٩ وظلت تتنازعها الفئات المتحاربة حتى سيطر
عليها الظاهر بيبرس في ٦ نيسان عام ١٢٧١ .



بقايا أعمدة كنيسة في مريمين



صورة لنساء يعزفن الموسيقى في مريمين في العصور القديمة

١٦- مريمين قرية مريمين المطلة على وادي العاصي، تبعد ٣٠ كلم عن حمص إلى الغرب على طريق حمص- مصياف، تتربّع على سفح جبل الحلو وتتمتع بموقع استراتيجي مهم وتتميّز بطبيعة تزيّنها ورودها وأزهارها التي تكسو أرضها بخضرة دائمة إضافة إلى هوائها العليل ومياهها العذبة الغزيرة. من أبرز خصائصها آثارها الفنية القديمة ومنها لوحة فسيفساء كبيرة قديمة تعود إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد وهي صورة لعازفات على الأرغن والقيثارة ما أثار دهشة البحّثة لوجود هذه الآلات في ذلك

الزمن. اعتنقت مريمين المسيحية منذ عهودها الأولى، ومن أشهر مسيحيي مريمين القديس "جلاسيوس" الذي استشهد في بعلبك عام ٢٩٨ في ذروة اضطهاد المسيحيين وهو مدفون فيها وبنيت فوق ضريحه كنيسة.



ماراثوس Marathus (عمریت)

١٧- ماراثوس (عمریت) تبعد عمریت ٧ كلم عن طرطوس باتجاه الجنوب، وفيها آثار معبد قديم طابعه فينيقي. تأسست في العصر الأموري في الألف الثالث قبل الميلاد؛ أما اسم عمریت أو أمریت فهو اسمها الكنعاني القديم. دعيت "ماراثوس" في عهد الإسكندر المقدوني. إلى جانب معبدها القديم يوجد "ستاديوم عمریت الفينيقي"، وهو أول ملعب في التاريخ.



قلعة صهيون



برج صافيتا

١٨- صافيتا صافيتا إحدى مدن محافظة طرطوس وتقع على بعد ٣٥ كلم شمال شرق طرطوس على ارتفاع ٣٨٠ م عن سطح البحر؛ تحيط بها التلال المكسوة بالخضرة والأشجار المثمرة. تطل المدينة على قمم جبلية أهمها جبل النبي متى المعروف بكثرة ينابيعه التي يزيد عددها على ٣٠٠ نبع، وجبل النبي صالح الذي يقع في قمته حصن سليمان الأثري. تتميز بطبيعتها اللطيفة واطلالاتها على الجبال والأحراج والغابات من جميع الجهات. سميت قلعتها بالبرج الأبيض، وسبب التسمية أن القلعة مبنية بحجارة كلسية بيضاء محلية المنشأ وقد بنيت فوق معبد كنعاني.



قلعة العريمة

١٩ - العريمة قلعة العريمة تقوم قلعة العريمة على ربوة تشرف على سهل فسيح بين نهر الأبرش وأحد روافده. يحيط بها سور مهدم، وتحتوي برجين وعدة سراديب. تتبع قرية العريمة إداريًا لناحية الصفصافة في محافظة طرطوس وتبعد عن مركزها ٢٥ كلم. تاريخ بنائها غير معروف، فهي تُعد من القلاع المنسية بين صافيتا وأرواد وطرابلس. وهناك إشارات إلى أنها ربما كانت تعود إلى مملكة أوغاريت الأرامية.



قلعة المرقب

٢٠ - المرقب تقع قلعة المرقب في محافظة طرطوس (بين طرطوس وبانياس) وتعتلي هضبة صخرية بركانية ترتفع ٣٥٠م عن سطح البحر ما يكسبها موقعًا منيعًا جعلها تتحكم بالطريق الساحلي القديم بين أنطاكية وطرطوس. يحدها من الشرق سلسلة من الجبال والوديان، أما من الجهة الغربية فتحدها سلسلة من الروابي والوهاد التي تنتهي قرب سطح البحر. يحيط بها سوران، سور داخلي والآخر خارجي ويحتوي ١٤ برجًا للمراقبة والدفاع. بناها العرب في عصر الخليفة العباسي هرون الرشيد، ثم احتلها البيزنطيون ثم استعادها العرب واعاد ترميمها رشيد الدين سنان (شيخ

الجبـل) واستمرت قائمة حتى احتلها الصليبيون عام ١١١٧م وجعلوا منها حامية لهم وبالنـهاية استعادها السلطان قلاوون عام ١٢٨٥.



قلعة العليقة

٢١ - قلعة العليقة العليقة بلدة في محافظة طرطوس تابعة إدارياً لمدينة بانياس التي تبعد عنها شرقاً نحو ٢٥ كلم، وتعلو ٧٥٥ م عن سطح البحر، تشرف قلعتها على وادي نهر جوبر السحيق والمعروف بوادي جهنم، يرجع تاريخ بنائها إلى نهاية القرن العاشر حين شرع سكانها بتشييدها

واستولى عليها البيزنطيون أيام الامبراطور رومان الثالث
أرجير Romain III Argyre الذي حكم بين عامي ١٠٢٨م
و١٠٣٤م.



قلعة المنيقة

٢٢ – مانيقا (أو المنيقة) تربض قلعة منيقة (أو المنيقة) في
منتصف المسافة بين جيلة وبانيلس، عند الحد الفاصل بين
جبال اللاذقية وطرطوس وبموقعها بين الجبال تبدو مطلّة
على الوديان المحيطة بها قوية منيعة زاخرة بحضارتها
القديمة رغم ما عانت من تدمير. تعود القلعة إلى الحقبة

الرومانية؛ دعت في الحقبة الإسلامية بالمينقة، وعرفت في الفترة الصليبية بحصن "مليكاس" أو حصن "المالغانس".



قلعة أبو قبيس

٢٣ - أبو قبيس أبو قبيس قرية تقع في منطقة سقيلية التابعة إداريًا لمحافظة حماه تربض عليها قلعتها في موقع جبلي رائع تحيط به الغابات، وفي القرية نبع مشهور بمياهه العذبة. يذكر المؤرخون أن بناء القلعة يعود إلى الفترة الرومانية، ولكن النسق المعماري المعتمد في تشييدها هو نموذج القلاع البيزنطية المبنية في القرن العاشر الميلادي، فمن المرجح أن يكون البيزنطيون قد سيطروا على هذه المنطقة وأعادوا تخطيط القلعة على النمط المعتمد لديهم.



قلعة بعيرين

٢٤ - قلعة بعيرين (Mont Ferrand) بلدة بعيرين إحدى

البلدات في محافظة حماه وتبعد عن مركز المحافظة مسافة ٤٠ كلم غرباً على الطريق الواصل بين حمص ومصياف، ما أكسبها أهمية استراتيجية بالغة إذ أنها تقع على منفذ على الطريق بين طرابلس وحلب عبر عرقة وأرطوسية (تلييسة) ورفنية التي تجاورها فكانت قلعتها تتحكم بالموصلات بين هذه المناطق. اتخذت بعيرين مركزاً للفيلق السادس Ferrata وهذا ما حمل "دوسو" على أن يستنتج أن التسمية الفرنسية Mont Ferrand مشتقة من Ferrata. عام ١١٣٧ حاصر نور الدين زنكي القلعة ثم احتلها. وبين

عامي ١٢٣٨ و ١٢٣٩ كانت القلعة بقبضة أمير حماه مالك المظفر ولكنه لما شعر أنه مهدد من أميري حمص وحلب هدم القلعة.



حصن بكسرايل (قلعة بني قحطان أو حصن السيدة العجوز)
٢٥ - قلعة بكسرايل (أو قلعة بني قحطان) بكسرايل قرية
في ناحية المزيرعة، ورد ذكرها في معجم البلدان لياقوت الحموي بالتالي: "بكسرايل حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل" وجاء في: "أسماء سريانية وأشورية جميلة ومعناها بالعربية (المصدر: معاني البلدان للمطران متى روهم مطران الجزيرة والفرات للسريان الأرثوذكس" أن

كلمة بكسرا ئيل هي كلمة سريانية مركبة من ثلاثة أجزاء:
الأول الباء مقتطعة من "بيت - موضع" والثاني كسر من
السريانية أي (كسل - ضجر - تعب) أما الثالث فمن
الكنعانية el- إيل فيكون معناها "موضع استراحة إيل"
وتُدعى اليوم بني قحطان. تبعد القلعة ٤٠ كلم عن مدينة
اللاذقية وهي مدمرة بشكل كبير.



قلعة صهيون (صلاح الدين)



قلعة القدموس

٢٦ - قلعة القدموس في القدموس العديد من المواقع الأثرية من أهمها "قلعة القدموس" التي تبعد عن بانياس ٣٠ كلم شرقاً وترتفع ١٠٠٠م عن سطح البحر وهي تشكل مرتفعاً صخرياً طبيعياً معزولاً عما يحيط به من جميع الجهات. يتم الدخول إليها من خلال درج يؤدي إلى بوابة أولى لحمايتها ويليه من جهة اليمين جدار تحصيني طوله ٥٠ م .



قلعة الرصافة

٣٠- قلعة الرصافة تنتصب قلعة الرصافة غربي مدينة

مصياف، بنيت في أواخر القرن العاشر الميلادي على يمين طريق مصياف - وادي العيون. هي الآن أطلال قلعة أثرية، رممها ودعّمها رشيد الدين سنان (شيخ الجبل) عام ٦٥١هـ أي ١١٦٦م. خضعت للغساسنة الذين عززوها بالمباني ويُنسب ذلك للملك الغساني الحارث الثاني كما يُنسب إليه تشييد الكاتدرائية الكبرى في الرصافة



قلعة الكهف

٢٧ - قلعة الكهف تقع قلعة الكهف في محافظة طرطوس على تلة صخرية في منطقة تتوسط سلسلة الجبال الساحلية على بعد ٢٠ كلم من القدموس، أرضها شبه مستطيلة طولها ٦٠٠ م وعرضها ١٦ م. هذه القلعة منحوتة في الصخر في قلب الجبل، وقد تمت إضافات لها في عصور لاحقة زيادة في تحصينها.



قلعة الموت (قلعة الحشاشين)



قلعة المهالبة (بلاطونوس)

٢٨ - قلعة المهالبة (بلاطونوس) هي إحدى القلاع السورية
الرابضة على إحدى قمم الجبال العالية في محافظة اللاذقية
على ارتفاع ٧٥٠م عن سطح البحر وتقع في منطقة
القرداحة.



قلعة الخوابي
٣١ - قلعة الخوابي تقع القلعة في منطقة الشيخ بدر في
محافظة طرطوس وتبعد نحو ٢٠ كلم عن مركز المحافظة
١٧٥

و١٢ كلم عن بلدة السودا. تنفرد هذه القلعة بأنها محاطة من جميع جهاتها بالوديان، كما تتميز بموقعها الحربي. تضم القلعة منشآت كثيرة منها ما تدمرت مع الزمن ومنها ما زالت صالحة للاستعمال؛ ومن أهم ما يميز هذه القلعة أقبيتها المتجاورة المنجزة تحت الأرض على كامل مدارها. أما اسمها "الخوابي" المنسوب إلى الخابية فهناك رواية ترده إلى "الجوابي" نسبة إلى الجابية ومعنى الجابية باللغة الآرامية المحل المخصص للحفظ والتخزين. يعود تاريخ بنائها إلى القرنين العاشر والحادي عشر.

القسم الثالث
النصيرون منذ
نهاية القرن الثامن عشر
حتى أيامنا

الفصل الأول

النصيريون في القرن التاسع عشر

مرحلة العشائر

تَنَسَّم سوريا إذاً بحالة سياسية تتناسب مع البعد عن السلطة المركزية ومع طبيعة الأرض الفيزيائية التي تجعل الاتصالات صعبة. وكما في العصور القديمة السحيقة، في تلك الحقبة المضطربة، المعروفة لدينا من خلال ألواح "تل العمارنة"، وكان من جرائها أن تقسّم البلد؛ فاستقرّ بعض صغار الطغاة في عكا، وطرابلس، وبيلا، وبياس، وأنطاكية*، وفي وادي العاصي كما في الجبل، مستغلين خصوصية هذه المناطق الجغرافية ليكسبوا إقطاعياتهم استقلالاً جزئياً، مع بقائهم في حالة عراك مستمر في ما بينهم. (خريطة ٢٠)



خريطة - ٢٠ -

١٨٠

ينقسم السكان في جبل النصيرية إلى قبائل أو "عشائر" لها عدد من التكتلات المتعاضدة بقدر ما تضم من عائلات تنبثق من الأصل نفسه، بما أن للمسيحيين وبعض المسلمين من أبناء المنطقة حق الإنتماء للعشيرة^١. أما العشائر الرئيسية فهي:

- ١- عشيرة الخياطيين، التي ترتبط بها العيدية، والفقاورة، والحلبية؛
- ٢- الرسالنة ومنها النواصرة، والجهنية، والرشاونة، والشماسنة (بيت شمسين)*؛
- ٣- عشيرة الحدادين وتتفرع منها القراحلة*، بيت ياشوط، العيتارية، البشالوة، والعامودي
- ٤- المتاورة^٢ وتتفرع منها النميلاتية، والبشارغة، والعراجنة والمهالبة الخ...

^١ - بلانش، "النصيري خيربك" في "المجلة الأوروبية"، ج ١٢ - (١٨٦٠) ص ٨٨٨. إن كلمة عشيرة، وبالتالي، النظام الذي تقصده لا بد وأن يكون قديماً. كان للدروز التنظيم عينه، إذ غالباً ما كان المؤيفون المسلمون يشيرون إليهم باسم "عشير". راجع كاترمير Quatremère "تاريخ سلاطين المماليك Histoire des Sultans mamlouks" ج ١ القسم ٢ ص ٢٧٣-٢٧٤.

* - حصل خطأ عند "دوسو" في فروع العشائر: فالشماسنة فرع من الحدادين، والقراحلة فرع من الكلبية (المترجم).

^٢ - راجع رينان Renan "مهمة فينيقيا" ص ١٢٦؛- بلانش Blanche المصدر نفسه؛- روسو Rousseau حوليات الرحلات ج ١٤ ص ٢٧١ وما بعدها؛

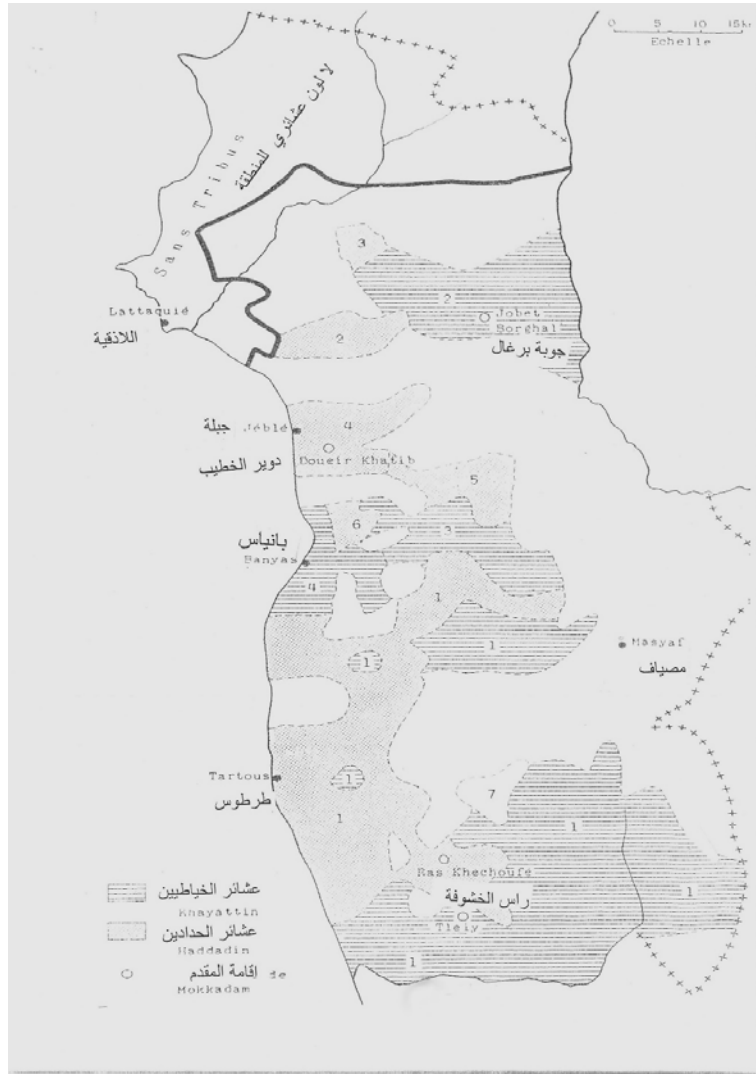
في بداية هذا القرن، كان الرسالة يشكلون العائلة النصيرية الأقوى، فادّعوا أنّ لهم حقاً في مصياف، حيث توجد قلعة منيعة على مدخل أحد أفضل المضائق المؤدية إلى الجبل. وكانت القلعة في قبضة الإسماعيليين وقد صدّوا عدّة هجمات عليها. وفي العام ١٨٠٨ كان نصيريان، قد سبق أن التحقا بخدمة أمير مصياف الإسماعيلي، مكلفين باغتيال الأمير، وفي اليوم المتفق عليه نفذوا الأمر وقتلا الأمير طعناً بالخنجر. في تلك الأثناء كان عدد من النصيريين رابضين في الجوار فانقضوا على السكان، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ونهبوا المدينة ثم استولوا على القلعة. أرسل الباشا والي دمشق فوراً إلى المنطقة فرقة قوامها من أربعة إلى خمسة آلاف رجل. قاوم الرسالة ثلاثة أشهر، ثم اضطروا للإسحاب. حاولت الكتائب التركية أن تتوغّل أكثر في البلد، لكن "هؤلاء المتشدّدين من أبناء الطائفة دافعوا ببسالة، فاقتصرت إنجازات الجيش التركي على السلب والنهب وإضرار النيران في ثلاث أو أربع قرى من قراهم؛ حينئذ استدعيت الفرقة التركية على الفور".^١

هارتمان "تأحية اللاذقية" (مجلة الجمعية الفلسطينية . الألمانية ج ١٤ ص ١٦٤)
(خريطة - ٢١ + ٢٢)

^١ - روسو Rousseau، قنصل فرنسا العام في حلب "تكريات عن الإسماعيليين والنصيريين في سوريا"، في "حوليات الرحلات" ج ١٤ ص ٢٩٠ وما بعدها؛

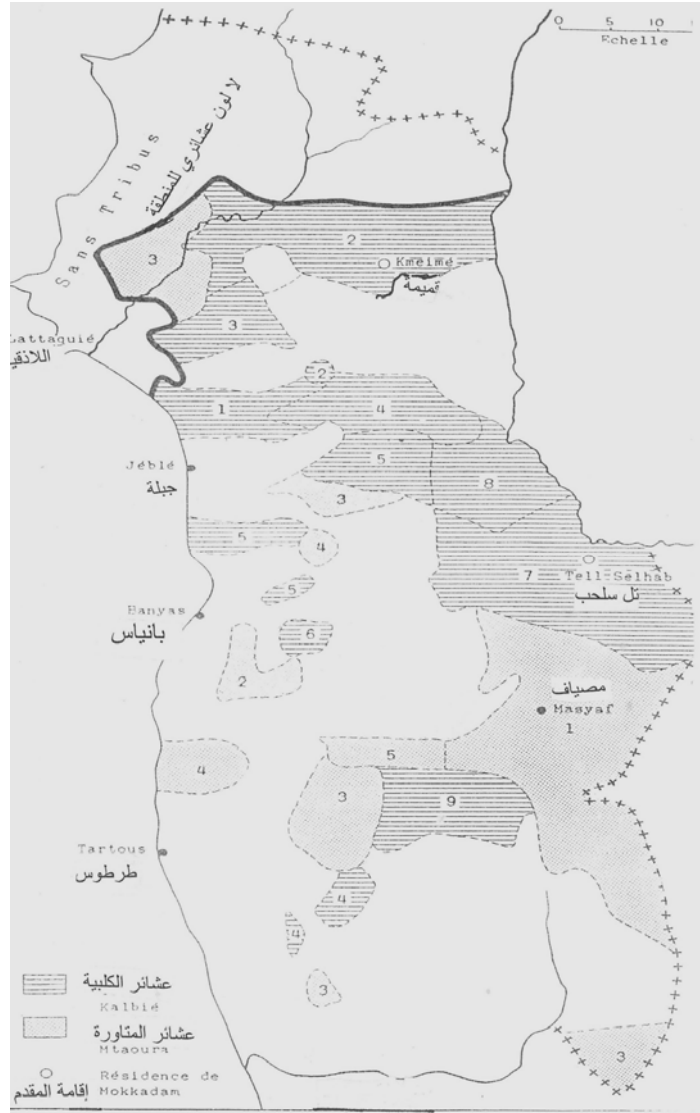
إن الذكريات التي بقيت من الحقبة التالية مفيدة لتثبيتها من أجل التاريخ المحلي. ولكن الشواهد القديمة فقيرة لدرجة أنه لا بد من إيضاحها وإكمالها بالأحداث المعاصرة. عند وصول إبراهيم باشا إلى سوريا، عام ١٨٣٢، كان يحكم جبل النصيرية زعماء محليون الذين كانوا يدفعون الجزية إلى الباشا والي طرابلس. وكانت هذه المناطق مزدهرة بزراعتها المتنوعة ومثيرة للتنافس. تبين الرسالة أنّ نفوذهم أخذ بالتراجع وكان خصومهم بيت شمسين (الشماسنة) يسيطرون على صافيتا، ويمهدون لتنظيم مقاومة لقدم إبراهيم باشا. ولكن القائد المصري، ببطشه النادر مثيله حتى في الشرق، أحبط علمًا بتلك المؤامرات الداعية للإستقلال، فكان جنوده المدربون جدًا والطرق التي أنجزها عوامل ساعدته على القيام بعمل حاسم؛ فدمر كل القلاع في الداخل وقطع رؤوس زعماء الشمسيين.

بوركهارد Burckhardt، "رحلات في سوريا والأرض المقدسة" لندن ١٨٢٢ ص ١٥٣.



خريطة - ٢١ -

١٨٤



خريطة - ٢٢ -

١٨٥

الفصل الثاني

ظاهرة اسماعيل خيربك (مشير الجبل)

بروز اسماعيل خيربك

ما إن غادرت القوات المصرية، حتى استأنف الزعماء المحليون معاركهم التي لا تنتهي. ففي العام ١٨٤٧ وقعت معارك بين الرسالة وبيت شمس هزت البلد، فاعتنمت السلطة التركية الفرصة لتتدخل، فكانت المرة الأولى التي يأتي فيها طاهر باشا شخصياً إلى المنطقة قادماً من حمص لإعادة الأمن^١. ومع ذلك لم يستطع أن يبسط نفوذ السلطنة والاعتراف بها في شمالي الجبل؛ فقضاء اللاذقية كان مستقلاً بالكامل؛ وفي اللقبة^٢، وهي قرية بمواجهة حماه، برز اسم اسماعيل خيربك، من السكان الأصليين وزعيم صغير من عشيرة المتاوره، فأرعب المنطقة، بقطع الطرقات وإيقاف القوافل.

^١ - كتافاغو Catafago (مجلة جمعية المستشرقين الألمان)، ج ٢ ص ٣٨٩

^٢ - حيث توجد قلعة صليبية C'est le "castellum de Lacoba" des Croisés

عام ١٨٥٤، وبفضل الأحداث الجسيمة التي حوّلت
اهتمام الحكومة صوب روسيا والبلقان، عاد زعماء الجبل
يتنافسون في ما بينهم.

ولكن اسماعيل خيربك، بعد أن استقرّ في صافيتا مع
بضع مئات من رجاله ولقّب نفسه مشير الجبل، حضر فوراً
وأعاد الأمن إلى المنطقة خلال بضعة أيام.

تعيين اسماعيل خيربك حاكماً على منطقة صافيتا

استحسنّت الحكومة التركية ذلك، ورغبة منها
بالاستفادة من شخصيّة على هذا القدر من القوة والحنكة،
تمسّكت به وعيّنته حاكماً لمنطقة صافيتا واستقبلته بأبهة في
طرابلس ثم في بيروت، حيث أقيم احتفال بتسميته. ثبّت
اسماعيل خيربك إقامته في الدريكيش بالقرب من صافيتا،
وكوّن لنفسه مظهر ملك شرقي فتي، محاطاً بهالة غريبة من
الفخامة، فارضاً الجزية على رعاياه ومثرياً أصحابه.
منحته الحكومة التركية صلاحية مطلقة لقاء ضريبة
تعادل ٣٠٠٠٠٠ فرنك فرنسي يؤديها إلى الحكومة بصورة
نظاميّة. أما "عدالته المزاجيّة والعديمة الرحمة فقد أنزلت
الرعب في جميع الخاضعين لإدارته. ولم يعد لبيت شمسين،

ولا للرسالة، ولا للخياطين أن يفكروا إلا بالإنصياح
مستسلمين لرغبات السيد الجديد^١."

وسّع اسماعيل سلطته حتى الكلية، وبلده الأصلي،
والحصن، والقدموسية وحتى البلدات الشمالية. وفي هذا
السياق جاء في مقالة للسيد "م. بلانش" نائب قنصل فرنسا
في طرابلس آنذاك: "ينبغي ألا يُقدّر بأقل من ١٢٠٠٠٠ نسمة
عدد السكان الذين يحكمهم اسماعيل كسيد مطلق، إما بتكليف
رسمي، وإما بتساهل من الحكومة التركية^٢."

يبدو هنا تكرار الظاهرة نفسها التي خلعت على
رشيد الدين سنان أمجاداً إلهية. إذ أنّ "المخيلة العربية
المتعطشة إلى الخوارق، وكان في ما جرى ما حملها بشدة
على الإعجاب بمزايا اسماعيل، فأطلقت لنفسها العنان في
وصفه. ساد الاعتقاد بقدرته اللامحدودة. وكل يوم، تُروى
سمات جديدة لعدالته، بعضها صحيح وبعضها مختلق،
وبطبيعة الحال، بعد أن تُجمل كلها بقوالب قصصية، كانت
تسري في الناس^٣."

^١ - بلانش - Blanche، "المجلة الأوروبية" ج ١٢ ص ٣٩٣ (صورة - ٦)

^٢ - المصدر نفسه ص ٣٩٣

^٣ - المصدر نفسه ص ٣٩٢



اسماعیل عثمان خیریک (مشیر الجبل)

الأقاصيص الشعبية المروية عن اسماعيل خيربك

جمعنا بعضاً من هذه الأقاصيص التي ما إن مضى أربعون سنة على الأحداث الماضية حتى ذاعت شهرتها في الجبل كله. إنّ الذين قرأوا الأقاصيص الإسماعيلية التي نشرها ستانيسلاس غويار سيجدون قرابة وثيقة بين هاتين السلسلتين. فالخارق، الناتج عن حيلة بسيطة، الذي كان يغلف أدنى أفعال رشيد الدين سنان عاد إلى الوجود هنا. لا شكّ أنه الدماغ نفسه، المجمّد منذ سبعة قرون، هو الذي تخيلها، لأنه يجب ألا ننسى أنّ عامة الشعب، الذي كان يحكمه رشيد الدين، كان يضم نسبة كبيرة من النصيريين.

— كان اسماعيل لا يزال في منزلة مقدّم^١ في عشيرته عندما رفض سكان إحدى البلدات استقبال عابر فقير. فلم يكن لدى المسكين حيلة إلا أن أمضى ليلته في مدخل القرية بالقرب من الفرن حيث ربط دابّته (الأتان)^٢ إلى أحد جدرانها. في الصباح اختفت الأتان. فشكا المسافر الفقير أمره إلى اسماعيل الذي استدعى شيخ القرية فوراً. ادّعى

^١ — المقدم في العشيرة هو من وجوها البارزة ويكلف بتمثيلها والنطق باسمها. (المترجم)

^٢ — الأتان هي أنثى الحمار. (المترجم)

الشيخ أنّ "الضبع افترس الأتان." فقال اسماعيل "إليّ بالضبع". فانطلقت مجموعة بحملة وبعد قليل أحضروا الضبع، فراح اسماعيل يستجوبه. أجاب الضبع " إذا أكلت الأتان، فمردّ ذلك إلى خطأ سكان القرية لأنهم لم يريدوا استقبال المسكين ودابته."

ثم سأل اسماعيل "ما هو القصاص الذي يجب أن أنزله فيهم؟" فجاء الجواب "يجب أن تدفع القرية خمسمائة قرش للمسكين عوضاً عن دابته، وفرس الشيخ للمقدم وستماية قرش لكل من رجال المقدم." ونفّذ أهل القرية الأمر فوراً.

باستخدامه هذه الحيلة، كان اسماعيل يسرف في اعتماده على معتقد النصيريين بالتقمص. وهاكم حكاية نصيرية كتبها مؤلف درزي ينبغي مقاربتها مع الاعتراف بأن هذه القصة ربما لم تُكتب إلا بقصد الذم.

- حكى بعضهم^١ أن رجلاً نصيرياً كان له كرم وكان يعمل في ذلك الكرم زماناً مع أبيه، إلى أن مات أبوه. وكان ذلك في أيام العنب، فتسلط ذئب على الكرم. كلما أتى

^١ - المكتبة الملكية برلين أصل عربي مخطوطة ٤٢٩١ (هذا النص هكذا ورد في كتاب "دوسو" ولم نترجمه)

الرجل، يجده يأكل من عنبه فيطرده. وما زال الأمر كذلك حتى ضجر منه فعزم على قتله؛ ولما أراد أن يرميه بالسلاح، قال له يا فلان، أتقتل أباك إذا تناول شيئاً من الكرم الذي أفنى عمره بالعمل فيه؟ فبهت الرجل لما رأى الذئب ناطقاً. قال "من أبي؟" قال "أنا وقد انتقلت نفسي إلى هذه الصورة، وهذا كرمي الذي كنت تحرث معي فيه." فتذكّر الرجل أن أباه كان قد خبأ منجلاً في الكرم عند انصرافه في المرة الأخيرة فأضاعه بعد موت أبيه ولم يعلم أين وضعه فقال للذئب "إن كنت صادقاً فقل لي أين المنجل الذي كنا نقطع به أغصان الكرم." فقال "اتبعني" ومشى إلى المكان الذي وضعه فيه وقال "هذا هو" فأخذه الرجل وأباح الكرم للذئب يرتع فيه كما يشاء.

- ذات ليلة، حصلت سرقة غلة قطاف الخيار من أحد الحقول، فاستدعى اسماعيل فتیان القرية، تفرّس فيهم فاحصاً ثم تركهم يذهبون. لكنه لاحظ أنّ اثنين من بينهم فرّا قبل الآخرين، فاستدعاهما واستجوبهما. فأقسم الأول أنه لم يطأ الحقل بقدميه، وأقسم الآخر بأنه لم يلمس الخيار بيديه. فقال اسماعيل "هذا ما كنت أود أن أسمعه. فالذي أقسم أنه لم تطأ قدماه أرض الحقل ركب على ظهر الآخر ليقطف الخيار."

ثم أمر بوضع نضوة في قدم الأول كالحصان، وسمّر أذن الآخر على أحد الأبواب.

- وحدث مرة أخرى، أن سُلِب دكان بإحداث فجوة في الجدار. جمع اسماعيل رجال القرية كعادته، وخاطبهم قائلاً " سأتلو صلاة أمام الفجوة فلن يستطيع السارق أن يمر من خلالها." وبعد أن انتهى من صلاته، عاد فقال " ما من داع إلى تجربة العبور من الفجوة لأنها أخبرتني : أن الجاني كسا الغبار طربوشه." وللتوّ، رأى السارق وقد لجأ إلى زاوية ينفض الغبار عن طربوشه.

- لم تكن الأحكام التي كان اسماعيل خير بك يُصدرها تكفي دائماً لسدّ حاجاته؛ ولكنه كان ذا فكر خصب بالحيل. فذات يوم، فيما كان والخوري حنا ، كاهن الرعية المارونية، جالسين يتحدثان، إذ توجّه للكاهن يسأله إذا كان متأكّداً من وجود فردوس. أجاب الخوري حنا بحرارة "بالتأكيد، نعم" واستفاض في شرحه مع تقديم أفضل الحجج. فأضاف اسماعيل، وقد بدا مقتنعاً، أتمنى أن أعرف ما هو نصيب كل أمة من الفردوس. تابع الخوري حنا، مجاملةً، في تثقيف الزعيم النصيري. ففي الفردوس، حسب ما يعرف الخوري الصالح، لا يوجد محل إلا للموارنة، ولكن مراعاة

للظرف، اعتقد أن من واجبه منح حصّة للنصيريين. وعندما حدّد تلك الحصّة بادره اسماعيل بعرضه: "حسنًا، فأنا أبيعها لك بخمسة آلاف قرش". أما الخوري حنا، الذي يعرف صاحبه، فكان حريصًا على نسيان هذا الدّين.

نهاية اسماعيل خيربك

بنتيجة هذه التصرّفات والفظاظة التي تميّز بها حكمه والتجاوزات التي كان يرتكبها، لم يطل الأمر باسماعيل خيربك حتى ألّب الناس ضده وأثار نقيمتهم عليه وأحقّادهم الشرسة.

أما هو فكان ينفق الأموال الطائلة لضمان الحظوة التي أولاه إياها ولي أمره عند السلطان، معتمدًا لذلك عميلين أحدهما في طرابلس والآخر في الأستانة. وحرصًا منه على أن يكون في مأمن من عدوان محتمل دأب على حبك خطة لينال قلعة الحصن، Crac des Chevaliers^١ المشهورة. هذه القلعة التي بناها " رهبان الضيافة"^٢، وهي تشرف على وادي النهر الكبير الجنوبي، وما زالت منتصبة كأنها لم

^١ - تختلف كتابة اسم قلعة الحصن التي اعتمدها المؤلف Crac عما ورد في القواميس Krak.(المترجم)

^٢ - هؤلاء الرهبان، في القرون الوسطى، كانوا يكرسون جهودهم لضيافة الحجاج والمسافرين.

تتعرض لأي اعتداء، مع بقائها طيلة ستة قرون القلعة الأكثر صلابة في الدفاع في سوريا كلها. ولكن لما حصل الطاغية الصغير على فرمان سلطاني من الآستانة بتعيينه "حاكمًا على الحصن مع إقامته في القلعة" تحرّك مسلمو عكار، الذين كانوا حتى ذلك الوقت حائرين مترددين، واتحدوا مع أقرانهم في الحصن، فشكّلوا قوّة فاعلة مقاومة للحوّل دون هذه السطوة. تحرّكت النعرة الدينية واندلعت الفتنة الطائفية ما أجبر الحكومة على التراجع عن قرارها وأبطلت التسمية الجديدة لاسماعيل خيربك. انتفض البلد بكامله واصطفّت القوى العثمانية في فيلقين، فانطلق جنود من دمشق، وواكبها طاهر باشا متولّي قيادة الكتائب الزاحفة من طرابلس فدخل للمرّة الثانية الإقليم النصيري (١٨٥٨). هرب اسماعيل خيربك وتحصّن في اللقبة: بيد أنّ القلعة التي أمر بتشبيدها لم تكن قد اكتملت بعد، فلجأ إلى الجبل العالي حيث غدر به أحد أقربائه، "علي الشلي" وقتله^١.

^١ - بلانش Blanche: "الأنصاري خيربك، في المجلة الأوروبية" ج ١٢ ص ٣٨٤-٤٠٢ وص ٥٨٢-٦٠١

الفصل الثالث

النصيريون في نهاية القرن التاسع عشر

بعد موت اسماعيل خيربك، حوّلت الحكومة التركية كل جهودها لاعتماد إدارة مباشرة للمنطقة. وهكذا، بتنا اليوم أمام أمر واقع: يتولى الموظفون العثمانيون بأنفسهم جباية الضرائب وتجهيز الكتائب العسكرية، والفوضى تعم العشائر الكبرى؛ فكان لا بد من تنفيذ غارات خاطفة ومتكررة، لاسيما بين عامي ١٨٧٠ و١٨٧٧، وإرسال الفرق لاجتياح المنطقة.

في شهر آب عام ١٨٧٠، وجّه المندوب الروسي المعتمد في اللاذقية إلى قنصله العام في بيروت تقريراً يعرض فيه الحالة الراهنة جاء فيه: "إن حالة الأفضية النصيرية من أكثر الحالات بؤساً وتعاسة، فلا عدل في ربوعهم ولا أمن." وبعد أن يصف البؤس الذي كان يسود في منطقة اللاذقية، يضيف: "أما الحالة في قضاء جبلة فهي أسوأ، فقد دُمّرت قرى النصيريين نهباً وحريقاً. فجباة الضرائب، والموظفون الأتراك وندماء القانمقام يرتكبون

مظالم فظيعة مذهلة، يسلبون الأهالي وينتزعون منهم كل وسائل العيش. فيهرع النصيريون ونساؤهم أفواجا إلى جبلة أمام القائمقام ليشتكوا أمرهم إليه ولكنهم كانوا يُطردون تحت ضربات العصي والسياط وسخرية القوم^١."

موازاة لتلك الأعمال العسكرية، جرت محاولة لإنفاذ ضغط ديني. فقد أقيمت بعض المساجد في المنطقة، ولكنها بقيت خالية كما حصل في زمن بيبيرس.

من هذا العرض، الذي قُدِّر له أن يكون موجزا بسبب قلة الوثائق، تتبين ملامح شعب، فُرض عليه أن يزرع دائما تحت تبعية ضيقة، ومع ذلك فقد عرف كيف يحافظ على نمط حياة نابع من محيطه الجغرافي، حياة مجتهدة فاعلة جدا. ففي ظل سيطرة الفينيقيين، الذين شغلوا البلد طوال عدة قرون ونشروا فيه معتقداتهم، حافظ النصيريون على ذاتيتهم الإثنية. وبعد ذلك اجتاحت المنطقة أقوام آخرون؛ فلم يفكر الغزاة الإغريق، والعرب، والإفرنج إلا بأن يكللوا المواقع الرئيسية بالقلاع المنيع. ولكنهم انسحبوا كل بدوره وبقي النصيري، متشبها بأرضه بثبات يحرث حقله ويعتني بكرمه

^١ - بتكوفيتش Petkovitch ، "النصيريون وعقائدهم الدينية" ص ١٦-١٨ (بالروسية). يعود الفضل بترجمة هذه المقاطع إلى السيد سيليجسون M. Seligsohn.

وبأشجار الزيتون ، يربّي ماشيته، محتفظاً في ذاته في ممارساته الخاصة بسمات معتقدات قديمة.

هذه الميزة المحافظة، الموجودة عند جميع السلالات المزارعة، تصيب اللغة بصورة خاصة. إذ يُثبت النجاح الذي أحرزه الترويج الاسماعيلي بنهاية القرن العاشر (م) أنه منذ تلك الحقبة دخلت العربية المجتمع النصيري. فقبل تلك الفترة كانوا يتكلمون السريانية: فما تزال لهجتهم تحتفظ ببعض الآثار^١.

وفي زمن أبعد قدمًا، من المؤكد أن الإغريقية كانت مفهومة في الجبل. فالنقوش الإغريقية ليست نادرة. ومن خصائص أسماء المناطق الآهلة بالنصيريين أن لها طابعًا ساميًا واضحًا، بينما تبقى السمة الإغريقية محفوظة في الغالب. وهذه الأماكن معروفة جيّدًا: طرابلس = Tripolis، طرطوس = Antaradus، بانياس أو بالنياس = Balanaia وفيما بعد Balanéas، اللاذقية = Laodicée، أنطاكية = Antioche الخ. أما في جبل النصيرية، فإن الأصل الفينيقي لأسماء الأماكن نادرًا ما يتم التعرّف إليه، لأن هذه

^١ - باريزو Parisot، "المجلة الآسيوية" ١٨٩٨ ج ١ ص ٢٤٨ . هارتمان Hartmann (الجمعية الألمانية . الفلسطينية) ج ١٤ ص ١٦٥: "هناك تعابير كثيرة وأكثرها آرامية بنوع خاص"

الأسماء اكتسبت الطابع السرياني أو العربي. ولكن يوجد بينها ما لا يدعو لأي شك مثل بعشتار = بيت عشتار^١. وهناك مجموعة من النقوشات على شواهد أضرحة إغريقية، لاحقة على بداية التاريخ الميلادي، تشهد على الأثر الباقي للأسماء الفينيقية في المنطقة: "أفدودسيريس، فيلفاراخوس، الخ"^٢.

تبقى النهايات المفخمة ذات الأصل السرياني مرتبطة بأسماء بعض الأماكن، نذكر منها: صافيتا (شاستل بلان) وهي لفظة سريانية صافية^٣.

بدوره، لاحظ رينان أن كتابة (سولومانييس)، - الموجودة على نقش في بلد النصيرية - بدلاً عن (سالامانييس)، لا بد أنها ناتجة عن أثر من السريانية^٤. لا بد أيضاً من الإشارة إلى أنه في هذه المنطقة، عندما يحل اسم إغريقي لمكان ما، محل اسم سامي بشكل يؤدي إلى نسيانه، فمن الثابت أن هذا الاسم الإغريقي يزول

^١ - هارتمان المصدر نفسه ص ٢٣١ و ٢٣٣

^٢ - نقوشات هالت Halet راجع "مجلة علم الآثار"، ١٨٩٧، ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠. إن زيارة مهمة للأماكن تتيح بالتأكد اكتشاف نقوشات أخرى من هذا النوع.

^٣ - راجع كليرمون - غانو مجموعة من "الآثار الشرقية" ج ٢ ص ١٧٠

^٤ - رينان Renan "مهمة..." ص ١٠٤

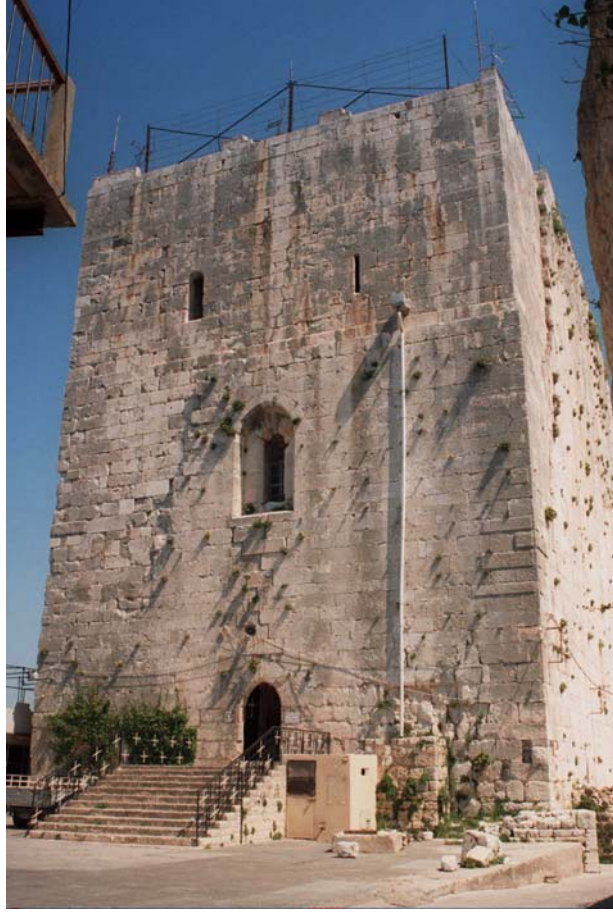
ليحل محله تسمية عربية. نضرب مثلاً على ذلك لفظة Boetocécé التي أدى استعمال الشكل الإغريقي لها إلى حجبها عن هويتها السامية وأصبحت تُسمى اليوم حصن سليمان^١. Balâtunus = Platanus التي نوه عنها مؤرخو العرب للحملات الصليبية، أصبحت قلعة المهالبة.

يمكن القول إذاً إن من بين كل الجماعات السورية ذوات اللغة والمعتقدات السامية^٢ يبقى النصيريون الأكثر تعلقاً بماضيهم والأصعب تخلياً عن معتقداتهم ولهجاتهم. سنتحقق من هذه الخلاصات من حيث المفهوم الديني بشكل أوسع في الفصول التالية.

^١ - يجب ألا نستنتج من هذه الأسماء "حصن سليمان، قلعة بيكيسرائيل أو بني إسرائيل" أنه كان يوجد مستعمرات يهودية في بلد النصيريين. حتى أن هناك زعمًا بأن النصيريين كانوا يهوداً تائبين. لن نتوقف لنناقش هكذا تخيلات؛ بل نلاحظ ببساطة أن الآثار المهمة في سوريا منسوبة إلى سليمان أو إلى الاسرائيليين. وهكذا أيضاً فيما يخص بعلبك إذ ينقل خليل الضاهري أنه قيل إن سليمان عليه السلام أمر بعمارتهما. والاسطورة ذاتها تسربت في التوراة حول تدمير (سفر الملوك إصحاح ٩ آية ١٨ وما زال يُقرأ في أيامنا هذه.

^٢ - سيكون من التوافه مناقشة مسألة معرفة ما إذا كان النصيريون ساميين. فتوصيف "سامي" ذو معنى عندما يُطبَّق على اللسان ولا دخل لها بتوصيف الشعوب.

صور المناطق والقلاع
التي ورد ذكرها في القسم الثالث



- ١ -
قلعة مصياف

٢٠٢



قلعة الحصن Crac des Chevaliers



حصن سليمان Boetocécé

٢٠٣



قلعة المهالبة (Balâtunus)

٢٠٤

أهم المراجع

أولاً: المراجع الأجنبية

- ١- **Pline** بلين فيلسوف طبيعي وقائد عسكري لاتيني، أهم كتبه "التاريخ الطبيعي" (تاريخ الولادة عام ٢٣م، تاريخ الوفاة ٧٩/٨١/٢٥).
- ٢- **Sozomène** سوزومان واسمه الكامل : Salominios Hermias Sozomenos مؤرخ إغريقي ومدرس فن الخطابة والبلاغة، عاش في بيروت.
(تاريخ الولادة عام ٤٠٠م، تاريخ الوفاة عام ٤٥٠م)
- ٣- **Anonymi Gesta Francorum ed Hagenmeyer**، كاتب مغفل يروي مشاهداته لأحداث الفرنجة، إصدار دار "هاجنماير"
- ٤- **Jacques de Vitry** جاك دو فيتري مؤرخ وأسقف فرنسي سيم أسقفًا عام ١٢١٦ (على عهد البابا Honorious III هونوريوس الثالث) ثم منحه البابا غريغوار التاسع رتبة كاردينال في كانون أول عام ١٢٢٨. (تاريخ الولادة بين عامي ١١٦٠ و ١١٧٠ وتاريخ الوفاة في ١٢٤٠/٥/١)
- ٥- **Albéric de Trois-Fontaines** ألبيريك دو تروا فونتين مؤرخ وكاهن بلجيكي غير معروف تاريخ الولادة، توفي عام ١٢٥٢ شارك في الحملة الصليبية عام ١٢١٨ ودون ملاحظاته.
- ٦- **Burchard de Mont Sion** بورشارد دو مون سيون كاهن ألماني أمضى في فلسطين عشر سنوات من عام ١٢٧٤ حتى ١٢٨٤ قدم وصفا دقيقاً للأراضي المقدسة وبعد انتهاء مهامه رحل إلى قبرص حيث بقي في ضيافة الملك هنري الثاني.

- Descriptio Terræ Santæ وصف الأراضي المقدسة
- ٧- Bar- Hebræus هو غريغوريوس أبو الفرج بن هارون
الملطي المعروف بـ "ابن العبري". لاهوتي وعالم سرياني، تم
تنصيبه مطراناً على حلب (تاريخ ولادته ١٢٢٦ توفي في
١٢٨٦/١٧٣٠)
- "تاريخ السلالات"
- "أخبار سورية"
- ٨- Louis Marracci لويس ماراتشي كاهن كاثوليكي إيطالي،
مستشرق ومترجم اشتهر بترجمته للقرآن الكريم إلى اللاتينية.
كان أستاذ اللغة العربية في جامعة Sapienza سابيينتسا (الحكمة)
في روما. (الولادة ١٦١٢/١٠/١٦ الوفاة ١٧٠٠/١٢/٥)
- "الكشف عن معاني القرآن" (١٦٩١)
- ٩- Henri Maundrell هنري موندريل أكاديمي بريطاني في
جامعة أوكسفورد وكاهن أنجليكاني كان مرشداً لشركة المشرق
في سوريا (مواليد عام ١٦٦٥ تاريخ الوفاة عام ١٧٠١).
- "رحلة من حلب إلى القدس" (١٦٩٧- ترجم عام ١٧٠٥)
- ١٠- George Sale جورج سايل، مستشرق انكليزي ومحام
اشتهر بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنكليزية عام ١٧٣٤.
(الولادة ١٦٩٧ الوفاة ١٧٣٦/١١/١٣)
- "بحث تمهيدي في القرآن"
- ١١- Guillaume de l'Isle غليوم دو ليل جغرافي فرنسي
اشتهر بالخرائط. علّم لويس الخامس عشر مادة الجغرافيا وحصل
على لقب جغرافي البلاط. (تاريخ الولادة ١٦٧٥/٢/٢٥ الوفاة
١٧٢٦/١١/٢٥).
- "خريطة سوريا: من انطاكية إلى حلب، إلى صيدا ودمشق"

١٢- **D'Herbelot** بارتليمي د'اربلو، مستشرق فرنسي عاش في القرن السابع عشر، انصرف إلى دراسة اللغات الشرقية، انتاجه الأساس هو انجاز المكتبة الشرقية، أو القاموس الشامل الذي يتناول كل ما يتعلق بمعرفة شعوب الشرق. (الولادة ١٦٢٥ الوفاة ١٦٩٥)

١٣- **Edward Pococke** ادوارد بوكوك، مستشرق انكليزي عاش في القرن السابع عشر، فقيه في الكتاب المقدس، سافر إلى حلب عام ١٦٣٠ حيث أمضى خمس سنوات درس في خلالها اللغة العربية وجمع مخطوطات قيمة. من مؤلفاته كتاب عن تاريخ العرب *Specimen Historiæ Arabum* بالإعتماد على ابن العبري "أبو الفرج". ساعد "بريان واتون" على طباعة الكتاب المقدس متعدد اللغات. أما كتابه المشهور فهو "الفيلسوف الذي علم نفسه" وهو ترجمة لقصة "حي بن يقظان" لابن طفيل. (الولادة ١٦٠٤ الوفاة ١٦٩١)

- "ملاح الشرق" (١٧٧٢)

- "تاريخ العرب" (أوكسفورد ١٨٠٥)

١٤- **Niebuhr**، نايبور مستكشف وعالم رياضي وعالم خرائط ألماني (تاريخ الولادة ١٧٣٣/٣/١٧ الوفاة ١٨١٣/٤/٢٦). شارك في رحلة علمية أمر بها ملك الدانمارك فريدريك الخامس سنة ١٧٦٠ الغرض منها كتابة تقرير علمي واجتماعي شامل عن الجزيرة العربية وسوريا ومصر.

- "رحلة إلى البلاد العربية" (ترجم إلى الفرنسية عام ١٧٨٠)

١٥- **Baron François de Tott** البارون فرنسوا دو توت، عسكري ودبلوماسي فرنسي من أصول مجرية انتدب إلى السفارة الفرنسية في اسطنبول عام ١٧٥٥، ثم كُلف بمهمة التفتيش العام للقنصليات الموجودة في المدن الساحلية التابعة للسلطنة العثمانية.

كان يتقن اللغة التركية ويعرف جيدًا العادات والتقاليد التركية. ذكرياته وانطباعاته دونها في كتاب دعاه "مذكرات البارون دو توت عن الأتراك والتتار" نشر هذا الكتاب في أمستردام عام ١٧٨٤. (الولادة ١٧٣٣\٨\١٧ الوفاة ١٧٩٣\٩\٢٤).

- "ذكريات" (أمستردام ١٧٨٤)

١٦- **Volney فولني**، مستشرق فرنسي ومؤرخ وسياسي، زار المشرق وكتب عن رحلاته، من مؤلفاته : ١- سوريا ولبنان في القرن الثامن عشر، ٢- ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام (الولادة ١٧٥٧\٢\١٣ الوفاة ١٨٢٠\٤\٢٥)

١٧- **William George Browne وليام جورج براون** بحاتة

ورحالة بريطاني، درس في أوكسفورد. زار الإسكندرية عام ١٧٩٢ ودرس فيها اللغة العربية وجال على الآثار المصرية. عاد إلى لندن عام ١٧٩٨ ثم يمم شطر اليونان وآسيا الصغرى وصقلية عام ١٨٠٠. اغتيل عام ١٨١٣ وهو في طريقه من تبريز إلى طهران. ألف كتابًا أسماه "رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا". (الولادة ١٧٦٨\٧\٢٥ الوفاة عام ١٨١٣)

١٨- **Seetzen سييتزن**، مستشرق ورحالة ألماني عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وتوفي سنة ١٨١١. سافر إلى مصر والحجاز واليمن.

- "رحلات إلى الشرق" (باريس ١٨٠٦)

١٩- **Mariti ماريتي**، مؤرخ إيطالي ولد عام ١٧٣٦ ومات عام ١٨٠٦، من مؤلفاته كتاب عن الحشاشين وشيخ الجبل.

٢٠- **J.Miot ج. ميوت** مذكرات عن تاريخ الرحلات إلى مصر وسوريا (مختصر كتاب فولني)

٢١- **Jean Jacques Rousseau جان جاك روسو** فيلسوف

وأديب وفنان ولد في جنيف عام ١٧١٢ وتوفي عام ١٧٧٨ من

مؤلفاته "حوليات عن الرحلات" حيث يتناول أشهر الطوائف الإسلامية في رأيه : الوهابيين والنصيريين والإسماعيليين. يعلق دوسو في هذا الصدد بأن المعلومات التي قدمها في المباحث الدينية غير ذات جدوى، على الرغم من التصويب الذي أجراه سيلفستر دوساسي للأخطاء الفاضحة.

٢٢- **Mattias Norberg** ماتياس نوربيرج مستشرق سويدي كان يجيد الإغريقية والسريانية. (الولادة عام ١٧٤٧ وتوفي بتاريخ ١٨٢٦/١١/١١)

٢٣- **De Corancez** هو لويس ألكساندر دو كورنسي مستشرق فرنسي التحق عام ١٧٩٩ بالبعثة العلمية التي رافقت بوناپرت فرنسا في حملته على مصر، ثم أصبح بعد ذلك قنصل فرنسا في حلب، وعام ١٨١١ صار عضواً في الأكاديمية الفرنسية. اشتهر بكتابته عن نشأة الوهابية وتاريخها، "تاريخ الوهابيين منذ النشأة حتى عام ١٨٠٩". (الولادة ١٩/٢٣/١٧٢٣ الوفاة ١٨٣٢/٧/٢)

٢٤- **J. L. Burckhardt** جان لويس بوركارد مؤرخ ورحالة سويسري قصد لندن عام ١٨٠٦ حيث التحق بجامعة كمبردج وتعلم العربية والطب. أنجز ثلاث رحلات إلى سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن فاكشف البتراء. أنجز كتاباً أسماه "رحلات إلى سوريا والأرض المقدسة" (الولادة ١٧٨٤/١١/٢٤ الوفاة ١٨١٧/١٠/١٥)

٢٥- **Felix Dupont** فيليكس دوبون مترجم فرنسي أنيطت به إدارة مركز القنصلية الفرنسية في اللاذقية عام ١٨٢١. كتب مذكرات عن التقاليد والاحتفالات الدينية عند النصيريين المعروفين في أوروبا بالأنصارية في النشرة الأسبوعية، السلسلة الأولى الجزء الخامس. كان دوبون أول من ذكر طائفة "الغيبية".

- ٢٦- **Joseph Von de Hammer** جوزف فون دو هامر
مستشرق نمساوي ترجم سيرة عنتره والفة ليلة وليلة وتائية ابن
الفارض إلى الألمانية. (الولادة ١٧٤٤ الوفاة ١٨٥٦) "شجرة
الثلاث وسبعين فرقة في الإسلام)
- ٢٧- **Henri Guys** هنري غيز نائب قنصل فرنسا في اللاذقية،
كتب مقالة في "المجلة الآسيوية" بعنوان: "ملاحظات على بحث
حول عادات واحتفالات النصيرية الدينية لفليكس دوبون"
- ٢٨- **James Silk Buckingham** جيمس سيلك بوكينغهام
كاتب وصحافي ورحالة انكليزي له كتابات حول رحلات بين
القبائل العربية عام ١٨٢٥ (الولادة ١٧٨٦ الوفاة ١٨٥٥)
- ٢٩- **Michaud et Poujoulat** ميشو وبوجولا فرنسيان:
أ- **Joseph- François Michaud** جوزف فرانسوا ميشو، سياسي
وصحافي ومؤرخ وعضو في أكاديمية العلوم والفنون الجميلة في
سافوا (الولادة ١٧٦٧\٦\١٩ الوفاة ١٨٣٩\٩\٣٠)
- ب- **Jean Joseph François Poujoulat** جان فرنسوا بوجولا
مؤرخ وصحافي وسياسي (الولادة ١٨٠٨\١\٢٨ الوفاة
١٨٨٠\١\١٥) "مراسلات الشرق" ١٨٣٠-١٨٣١. قليل الابتكار،
وفيه أخطاء فاضحة، منها أن بوجولا يخلط بين القدموسية (وهم
اسماعيليون) وبين النصيرية، ولا ريب أن السبب يعود إلى
اقتباسه من فولني.
- ٣٠- **المكتبة الوطنية** أخبار عن احتلال ابراهيم باشا لسوريا،
مرفقة بملاحظات عن "العنزة" والنصيريين.
- ٣١- **Silvestre de Sacy** سلفستر دو ساسي صحافي
وسياسي وعضو في الأكاديمية الفرنسية كتب بحثاً عن معتقد
الدروز، وآخر عن النصيريين (الولادة ١٨٠١\١٠\١٧ الوفاة
١٨٧٩\٢\١٤)

- ٣٢- **Edward Robinson** ادوارد روبنسون أميركي، عالم لسانيات وآثار والأنثروبولوجيا، واللاهوت، متخصص بدراسات الكتاب المقدس، وجغرافي ومترجم كان عضوًا في الأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم وفي الأكاديمية الروسية للعلوم. (الولادة ١٨١٠/٤/١٧ - الوفاة ١٨٦٣/١١/٢٧)
- ٣٣- **Jacob Berggren** جاكوب بيرغرين راهب ورحالة ومستشرق سويدي رحل إلى بلاد الشرق وأقام فيها زمنًا طويلاً. من آثاره معجم فرنسي - عربي كدليل للمسافرين إلى سوريا ومصر عام ١٨٤٤. (الولادة ١٧٩٠ - الوفاة ١٨٦٨)
- ٣٤- **William Thomson** وليام تومسون من مبشري جمعية هيرالد البروتستانتية رحل إلى الشرق وتحديداً لبنان وسوريا في أثناء حوادث ١٨٤٠ - ١٨٦٠. له كتاب "الأرض والكتاب"
- ٣٥- **John Wilson** جون ولسون مستشرق انكليزي أمضى زمنًا في الهند وأسس معهدًا، له مؤلفات عديدة أهمها "أرض التوراة" نشره عام ١٨٤٧. (الولادة ١٨٠٤ - الوفاة ١٨٧٥)
- ٣٦- **Samuel Lyde** صموئيل لايد مبشر انغليكاني انكليزي مؤلف "النصيرية والإسماعيلية زيارة للطوائف الباطنية في شمالي سوريا" مع الرؤية لتأسيس مدارس عام ١٨٥٣. (الولادة ١٨٢٥ - الوفاة ١٨٦٠)
- ٣٧- **Karl Ritter** كارل ريتز جغرافي ألماني مؤسس علم الجغرافيا الحديثة. أسس "الجمعية الجغرافية" ألف كتاب الجغرافيا العامة. (الولادة ١٧٧٩ - الوفاة ١٨٥٩)
- ٣٨- **Victor Langlois** فيكتور لانغلوا مؤرخ ومستشرق فرنسي وعالم مسكوكات واختصاصي بالآثار، كتابه "رحلة إلى كيليكيا وجبال طوروس" يحتوي مختصرًا عن النصيريين. (الولادة ١٨٢٩ - الوفاة ١٨٦٩)

٣٩- **Robert Walpole** روبرت والبول، سياسي بريطاني،
انتخب عضوًا في البرلمان لمرات متعددة ورئيسًا للوزراء للفترة
الواقعة بين ١٧٢١\٤\٤ وحتى ١٧٤٢\٢\١٦.
٤٠- **Arthur de Gobineau** آرثر دو غوبينو، أديب
ودبلوماسي وسياسي فرنسي اشتهر بأرائه في التفاوت العرقي
بين البشر فيكون قد مهد لمذهب التمييز العنصري.
(الولادة ١٨١٦\٧\١٤ الوفاة ١٨٨٢\١٠\١٣)

٤١- **Ernest Renan** إرنست رينان مستشرق ومؤرخ وكاتب
فرنسي، اشتهر بنقد الروايات الدينية نقدًا علميًا موضوعيًا مميزًا
بين العناصر التاريخية والعناصر الأسطورية لهذه الروايات؛ آمن
بتراتبية الأجناس البشرية. كان عضوًا في الأكاديمية الفرنسية
للغة. (الولادة ١٨٢٣\٢\٢٨ الوفاة ١٨٩٢\١٠\١٢)

٤٢- **Le Baron Emmanuel Guillaume Rey** إيمانويل غيوم راي
مستشرق وعالم بالآثار وطوبوغراف
فرنسي، اكتشف آثار المستعمرات الفرنسية في القرن الثاني
عشر. قام بأول رحلة إلى سوريا وهو في سن العشرين حيث زار
منطقة حوران، ثم قام برحلات أخرى إلى سوريا وفلسطين
ومصر. كان يتقن العربية. في العام ١٨٦٥ أصبح عضوًا في
جمعية الجغرافيين وجمعية علماء الآثار. (الولادة ١٨٣٧\٥\٢٨
الوفاة ١٩١٦\٤\٤)

٤٣- **Aloys Sprenger** ألويس شبرنجر، مستشرق نمساوي
درس الطب والعلوم الطبيعية بالإضافة إلى اللغات الشرقية في
جامعة فيينا. تولى تعليم اللغات الشرقية في جامعة "برن" عام
١٨٥٧ وما تزال المخطوطات التي حصل عليها في اللغات العربية

والفارسية والهندستانية محفوظة في المكتبة الملكية في برلين.
(الولادة ١٨١٣\٩\١٣ الوفاة ١٨٩٣\١٠\١٩)

٤٤- **Alfred Von Kremer** ألفرد فون كريمر، مستشرق نمساوي، شغل منصب قنصل في مصر وببيروت؛ نشر نحو عشرين كتابًا عربيًا، وله كتابات كثيرة عن الإسلام والثقافة الإسلامية باللغة الألمانية. (الولادة ١٨٢٨\٥\١٣ الوفاة ١٨٨٩\١٢\٢٧)

٤٥- **Stanislas Guyard** ستانيسلاس غويارد مستشرق فرنسي أبصر النور عام ١٨٤٦، كان مهتمًا باللغات الشرقية منذ نعومة أظفاره، خلال إقامته في روسيا ثلاث سنوات بصحبة بعض النبلاء من إيران، ثم انكب على تعلّم العربية فور عودته إلى باريس ثم درّس العربية في "معهد فرنسا- Collège de France". أتم تحقيق جغرافية أبي الفداء عام ١٨٨٣ ومات منتحرًا عام ١٨٨٤

٤٦- **Philipp Wolff** فيليب وولف مستشرق ألماني ترجم العرض الذي قدمه سيلفستر دو ساسي للديانة الدرزية (الولادة ١٨١٠\١٢\٢٢ الوفاة ١٨٩٤\١١\١١)

٤٧- **Léon Cahun** ليون كاهون مستشرق وكاتب وصحافي فرنسي، متعمّق بأصول اللغة الفرنسية، أمضى ثلاث سنوات في سوريا حيث كان مكلفًا بمهمة علمية من الحكومة الفرنسية. أوحى له إقامته في سوريا كتابة رواية سرد فيها تفاصيل إقامته بين النصيريين من ضمن قصة رحلة حول العالم نوه فيها بحسن ضيافتهم وكرمهم. (الولادة ١٨٤١\٦\٢٣ الوفاة ١٩٠٠\٣\٣٠)

٤٨- **Martin Hartmann** مارتن هارتمان مستشرق ألماني عُيّن في القنصلية الألمانية العامة في بيروت وبقي فيها لمدة طويلة فتعلّم اللغة العربية وأتقنها وأضيفت إلى مهامه أعمال

الترجمة ثم عاد إلى برلين ليتم تعيينه مدرّساً للغة العربية في جامعة برلين عام ١٨٨٧ حيث استمر يدرّس في قسم اللغات الشرقية منذ ذلك الحين وحتى وفاته عام ١٩١٨. (الولادة ١٨٥١/١٢/١٩ الوفاة ١٩١٨/١٢/٥)

٤٩- **Louis Charles Emile Lortet** لويس شارل اميل

لورتيه طبيب وعالم إنسانيات (أنثروبولوجي) وعالم آثار فرنسي، كان ضليعاً في كل ميادين العلوم الطبيعية والإنسانية وأتقن معرفته بالشرق الأوسط. قام بعدة رحلات تحقيقاً لمهام علمية فقصده اليونان، وسوريا ومصر. من كتاباته "سوريا اليوم" عام ١٨٨٤، مقتطف من رحلة حول العالم. (الولادة ١٨٣٦/٨/٢٢ الوفاة ١٩٠٩/١٢/٢٦)

٥٠- **Eduard Sachau** ادوارد ساخاو، مستشرق ألماني، درس

اللغات الشرقية في جامعتي "كيل" و"لايبزغ" أصبح استاذاً مميّزاً في فقه اللغات السامية، واستاذ كرسي في جامعة فيينا عام ١٨٧٢ ثم استاذاً في جامعة برلين حيث أسندت إليه مسؤولية اللغات الشرقية. سافر إلى الشرق الأدنى في عدة مناسبات وصفها في كتابه "رحلة إلى سوريا وما بين النهرين" (الولادة ١٨٤٥/٧/٢٠ الوفاة ١٩٣٠/٩/١٧)

٥١- **Ernest Chantre** ارنست شانتير، عالم انثروبولوجي وعالم

آثار فرنسي أسند إليه منصب نائب مدير متحف التاريخ الطبيعي في مدينة ليون. قام بعدة رحلات في آسيا الصغرى وأرمينيا وبلاد الأناضول تنفيذاً لمهام دراسية تتعلق بسلوك الأقوام. (الولادة ١٨٤٣/١١/١٣ الوفاة ١٩٢٤/١١/٢٤)

٥٢- **Elisée Reclus** اليزيه روكلوه، جغرافي فرنسي، من

الذين أخذوا بنظرية الفوضى، شارك بتحرير جريدة الثائر. أنجز خرائط العالم. (الولادة ١٨٣٠/٣/١٥ الوفاة ١٩٠٥/٧/٤)

٥٣- **Dr Carl Diener** دكتور كارل دينر، جغرافي وجيولوجي نمساوي، كما كان ضليعاً بعلم الباليانطولوجيا (دراسة الكائنات في العصور الجيولوجية من خلال البقايا من رفاتها) كان رحالة زار سوريا ولبنان عام ١٨٨٥. من كتبه، لبنان: الخطوط العريضة للطبيعة الجغرافية والجيولوجية لسوريا المركزية. (الولادة ١٨٦٢\١٢\١١ الوفاة ١٩٢٨\١١\٦)

٥٤- **René Dussaud** رينيه دوسو مستشرق وعالم آثار وأنثروبولوجي فرنسي، أنجز عدة مهام في علم الآثار في سوريا اعتباراً من عام ١٨٩٥؛ اختصاصي مشهور في فهم التدوينات القديمة، بعد عودته إلى باريس تم تعيينه أميناً على متحف اللوفر. شغل منصب مدير مساعد لمجلة تاريخ الأديان؛ أسس عام ١٩٢٠ مجلة "سوريا". حاز على عدة أوسمة تقديراً لأبحاثه. من مؤلفاته تاريخ النصيريين وديانتهم، ورحلة في سوريا ومؤلفات أخرى. (الولادة ١٨٦٨\١٢\٢٤ الوفاة ١٩٥٨\٣\١٧)

٥٥- **Le R. P Iammens** قدس الأب لامنس اليسوعي. الأب لامنس راهب يسوعي بلجيكي الأصل، مستشرق ومتعمق بالفلسفة واللاهوت ويتكلم العربية كأحد أبنائها ومؤرخ للإسلام وله في هذا المجال أبحاث ومؤلفات عديدة، من ضمنها عدة دراسات عن العلويين (النصيريين) أمضى معظم حياته في لبنان وتوفي في بيروت. (الولادة ١٨٦٢\٧\١١ الوفاة ١٩٣٦\٤\٢٤)

ثانياً: المراجع العربية

١- ياقوت الحموي، هو شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (نسبة إلى مسقط رأسه في حماه) رومي الأصل. أديب وشاعر ومؤرخ ورحالة وجغرافي وخطاط، اشتهر بأعماله

- الموسوعية. منذ بلغ الخامسة والعشرين زار فارس والشام
ومسقط رأسه حماه. أهم مؤلفاته "معجم البلدان". عاش في بغداد
حتى وفاته. (الولادة ١١٧٨م "٥٧٤هـ" الوفاة ١٢٢٥م "٦٢٢هـ")
- ٢- غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطى، المعروف بـ"ابن
العبري"، وقد ورد ذكره مع المراجع الأجنبية، اعتقد بعض
مترجمي الأعلام أنه عبراني "أي يهودي" من لقبه بابن العبري،
غير أن هذا اللقب ورد من مجيء جده من قرية "عبرى" قرب
الفرات. كان أسقف حلب؛ له عدة مؤلفات منها "تاريخ السلالات"
- ٣- ابن سعيد الأندلسي، هو نور الدين أبو الحسن علي بن موسى
المعروف بـ"ابن سعيد" وهو من ذرية الصحابي عمار بن ياسر،
مؤرخ وشاعر وعالم بالأدب، زار مصر والعراق والشام له
مؤلفات كثيرة في الأدب والشعر والتاريخ والجغرافيا، منها
وصف الكون في الجغرافيا (الولادة ١٢١٤م الوفاة ١٢٨٦م)
- ٤- أبو الفداء، هو اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن
شاهنشاه بن أيوب المعروف بصاحب حماه (أو ملك حماه) الملك
العالم، مؤرخ وجغرافي، تعمق في دراسة التاريخ والأدب
وأصول الدين وعلم الهيئة والفلسفة والطب، له عدة كتب من
أهمها "كتاب المختصر في أخبار البشر" المعروف بتاريخ أبي
الفداء، وكتاب "تقويم البلدان في الجغرافيا" المعروف بجغرافيا
أبي الفداء. (الولادة ١٢٧٣م الوفاة ١٣٣١م)
- ٥- الشهرستاني، هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد
الشهرستاني (نسبة إلى شهرستان في خراسان). كان ضليعاً في
علم الكلام وأديان الأمم والمذاهب وآراء الفلاسفة، "صاحب
التصانيف" كما وصفه ياقوت. له عدة مؤلفات أهمها: الملل
والنحل، ونهاية الإقدام. (الولادة ٤٧٩هـ؟ ١٠٨٦م الوفاة ٥٤٨هـ
١١٥٣م)

٦- ابن بطوطة، هو محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي (نسبة إلى مسقط وأسه طنجة)، رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي أمازيغي. لُقّب بأمير الرحالة المسلمين، غادر طنجة عام ٧٢٥هـ وله من العمر ٢٢ سنة، فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وفارس والبحرين وما وراء النهر. بعد رحلات استمرت ٢٧ عامًا جاب بها معظم أقطار العالم سرد تفاصيلها في كتاب سماه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". (الولادة ١٣٠٤م الوفاة ١٣٧٧م).

٧- ابن تيمية، هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام النميري الحراني. فقيه وعالم مسلم مجتهد ووزير الانتاج منتسب إلى المذهب الحنبلي وأحد أبرز العلماء المسلمين خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري والقرن الثامن، سمع لأكثر من مائتي شيخ في مختلف العلوم. اشتهر بفتاويه. (الولادة ٦٦١هـ = ١٢٦٣م ؛ الوفاة ٧٢٨هـ = ١٣٢٨م)

٨- الجرجاني، هو علي بن محمد بن علي الشريف الحسني المعروف بالشريف الجرجاني، فلكي وفقيه وموسيقي وفيلسوف ولغوي. ولد في جرجان وتلقى العلم على شيوخ العربية واهتم اهتمامًا خاصًا بتصنيف العلوم، انتدبه الشاه شجاع بنمحمّد بن مظفر للتدريس في شیراز؛ استمر الجرجاني بالتدريس في شیراز حتى دخلها تيمورلنك حينئذ غادرها الجرجاني هاربًا إلى سمرقند وبقي فيها حتى موت تيمورلنك فعاد إلى شیراز ليقوم فيها حتى وفاته. له أكثر من خمسين مؤلفًا أهمها كتاب "التعريفات" (الولادة عام ٧٨٩هـ = ١٣٣٩م الوفاة عام ٨١٦هـ = ١٤١٣م)

٩- المقريزي، هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر الحسيني المقريزي. مؤرخ مصري، أصله من بعلبك، تعود نسبته "المقريزي" إلى حارة "المقارزة" في بعلبك في أيامه. وُلد ونشأ ومات في القاهرة، حيث تولى الحسبة والخطابة والإمامة

مرات عديدة. اتصل بالملك "الظاهر برقوق" ودخل دمشق مع ابنه الناصر سنة ٨١٠هـ، فعرض عليه قضاؤها لكنه أبى وعاد إلى مصر وبقي فيها حتى وفاته. له عدة مؤلفات أهمها "السلوك لمعرفة دول الملوك" و"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" (الولادة عام ٧٦٤هـ = ١٣٦٤م الوفاة عام ٨٤٥هـ = ١٤٤٢م)

١٠- ابن قاضي شهابه، هو أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهابه الأسدي الدمشقي الشافعي. فقيه الشام ومؤرخها وعالمها اشتهر بابن قاضي شهابه لأن جده الأعلى نجم الدين عمر كان قاضيًا بشهابه (قرية في حوران). (الولادة عام ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م الوفاة عام ٨٥١هـ = ١٤٤٧م)

١١- كتاب المحررات السياسية ، يحتوي مجموعة البرقيات والرسائل التي كان القناصل المعتمدين في سوريا ولبنان يبعثون بها إلى دولهم في القرن التاسع عشر. تتألف المجموعة من ثلاثة مجلدات، تولى تعريبها فيليب وفريد الخازن صاحباً جريدة الأرز عام ١٩١٠

١٢- المكتبة الملكية (برلين) "في تقسيم جبل لبنان وحالة الحكام فيه" (من المخطوطات الدرزية، يذكر المؤلف منزلة العائلات الكبرى في لبنان، وبعدها ينتقل إلى موقع النصيريين) مخطوط رقم ٥٥) ويتناول سطحياً عاداتهم وتقاليدهم.

١٣- جرجي أفندي ينّي "كتاب تاريخ سوريا" عام ١٨٨١.

La terminaison emphatique d'origine syriaque est encore attachée à nombre de localités. Şafita (سَفِيْتا), Chastel-Blanc, est une forme syriaque pure¹. Renan a remarqué que Σολωμύνης, — trouvé sur une inscription du pays noïairi, — pour Σαλμύνης, provenait d'une sorte de syriacisme².

Il faut encore noter que, dans cette région, lorsque le nom grec du lieu a supplanté le nom sémitique au point de le faire oublier, il est constant que ce nom grec ait disparu pour faire place à une appellation arabe. Ainsi Bœtocécé dont la forme grecque a fini par masquer la valeur sémitique, s'appelle aujourd'hui Hoşî-Soleimân³. Balātunus = Platanus, mentionné encore par les historiens arabes des Croisades, est devenu Qal'at Mouhélbeh.

On peut donc dire que de toutes les populations syriennes dont la religion et la langue étaient sémitiques⁴, les Noïairis sont ceux qui ont le plus difficilement renoncé à leurs doctrines et à leur dialecte. Nous vérifierons plus amplement ces conclusions au point de vue religieux dans les chapitres suivants.

1. Cf. Clermont-Ganneau, *Recueil d'Archéologie Orient.*, t. II, p. 170.

2. Renan, *Mission*, p. 104.

3. Il ne faudrait pas conclure de ces noms Hoşî-Soleimân, Qal'at Bikisrâ'il ou Beni-Isrâ'il qu'il y eut des colonies juives en pays noïairi. On a même prétendu que les Noïairis étaient des Juifs égarés. Nous ne nous arrêterons pas à discuter de pareilles fantaisies; nous remarquerons simplement que les ruines imposantes sont fréquemment attribuées en Syrie à Salomon ou aux Israélites. C'est ainsi qu'à propos de Ba'albek, Khalil adh-Dhâhîry (éd. Ravaisse, p. 47) rapporte :

قيل ان سليمان عليه السلام امر بعمارته

La même légende s'est glissée dans la Bible, au sujet de Palmyre (*I Rois*, ix, 18, et *II Chr.*, viii, 4) et a encore cours aujourd'hui.

4. Il serait oiseux de discuter la question de savoir si les Noïairis sont des Sémites. La qualification de « sémitique » a un sens quand elle est appliquée à la langue, elle n'en a pas pour caractériser des peuples.

initierent à leur religion, les Noşairis gardèrent leur valeur ethnique. Les conquérants grecs, arabes et francs ne songèrent qu'à couronner de forteresses imprenables les positions maîtresses. Tour à tour, ils se sont retirés. Le Noşairi est resté, immuablement attaché au sol, labourant son champ, cultivant sa vigne et ses oliviers, élevant son bétail et gardant au fond de lui, dans ses pratiques secrètes, l'empreinte des vieux cultes.

Ce caractère conservateur qu'on retrouve chez toutes les races de paysans, affecte particulièrement le langage. Le succès de la propagande ismaéli à la fin du X^e siècle prouve que dès cette époque, l'arabe avait pénétré chez les Noşairis. Antérieurement, ils parlaient syriaque : leur dialecte en conserve encore quelques traces¹. Plus anciennement, le grec fut certainement compris dans la montagne. Les inscriptions grecques ne sont pas rares. Mais il est caractéristique que le nom des localités habitées par les Noşairis ait toujours une allure nettement sémitique, tandis que sur la côte et dans la plaine la forme grecque s'est souvent conservée. Ces dernières localités sont bien connues : Taraboulous = Tripolis, Tarfous = Antaradus, Baniyās ou Balniyās = Balanaia et plus tard Balanēas, Ladihiyyah = Laodicée, Antakiyyah = Antioche, etc. Dans le Djabal an-Noşairiyyah, l'origine phénicienne des noms de lieux est rarement reconnaissable, car ils ont pris une forme syriaque ou arabe. Il en est cependant qui ne laissent aucun doute, comme B'achtar = bait 'Achtar'. Un groupe d'inscriptions funéraires grecques postérieures à notre ère, témoigne de la survivance des noms phéniciens dans la région : Ἀδωνίσις, Βελεπράχος, etc.².

1. Parisot, *Journal asiatique*, 1898, t. I, p. 248. Hartmann, *Zeitschrift des deutsch. Palest.-Vereins*, t. XIV, p. 165 : « Es ist darunter viel altes Sprachgut, wohl besonders zahlreich aramaïsches. »

2. Hartmann, *op. cit.*, p. 231 et 233.

3. Inscriptions de Halet. Cf. *Recue archéol.*, 1897, t. I, p. 309-310. Une visite attentive des lieux permettrait certainement de découvrir d'autres inscriptions de ce type.

gagna la haute montagne où il fut trahi et tué par un de ses parents, 'Ali Chelli'.

Depuis la mort d'Ismaël-beg, le Gouvernement turc a tourné tous ses efforts vers une administration directe. Le fait est accompli aujourd'hui : les fonctionnaires ottomans perçoivent l'impôt et lèvent des troupes ; les grandes tribus sont désorganisées. Mais il a fallu à plusieurs reprises, notamment en 1870 et 1877, procéder à des exécutions sommaires et envoyer des troupes pour dévaster la contrée. Au mois d'août 1870, l'agent russe à Lataquié adressait à son consul général à Beyrouth un rapport qui exposait la situation : « L'état des districts noïsaïrs est des plus misérables et des plus tristes. Il n'y a pour eux ni justice, ni sécurité. » Après avoir décrit la misère qui régnait dans le district de Lataquié, il ajoutait : « La situation du district de Djabalah est encore pire, les villages des Noïsaïrs sont dévastés par le pillage et l'incendie. Les percepteurs de dîmes, les fonctionnaires turcs et les amis du Qaimaqam font des injustices inouïes et leur enlèvent tout moyen d'existence. Les Noïsaïrs et leurs femmes arrivent en masse à Djabalah pour se plaindre devant le Qaimaqam, mais on les éconduit à coups de bâton sous les risées¹. »

Parallèlement à cette action militaire, on tenta une pression religieuse. Quelques mosquées furent élevées dans la région ; mais comme au temps de Baïbars, elles restèrent vides.

De cet exposé fatalement sommaire par suite de la pénurie des documents, se dégage la physionomie d'un peuple qui, toujours tenu dans une dépendance assez étroite, sut conserver une vie locale très active. Sous les Phéniciens, qui occupèrent le pays durant de longs siècles et qui les

1. Blanche, *L'Ansarié Kaïr-Beïh*, dans *Revue européenne*, t. XII, p. 384-402, et p. 582-601.

2. Petkovitch, *Les Noïsaïrs et leurs croyances religieuses*, p. 16-18 (en russe). Je dois la traduction de ces passages à l'obligeance de M. Seligsohn.

— Les jugements qu'il rendait, ne suffisaient pas toujours aux besoins d'Ismaël-beg ; mais il avait l'esprit fertile en ressources. Causant un jour avec le curé Hanna, chef des Maronites, il lui demanda s'il était bien sûr qu'il y eût un Paradis. « Oui, certes, » répondit avec chaleur le curé Hanna qui lui développa ses meilleures raisons. Ismaël, l'air convaincu, voulut connaître quelle était la part du Paradis réservée à chaque nation. Le curé Hanna continua complaisamment à instruire le chef noïairi. Dans le Paradis, le bon curé savait bien qu'il n'y avait place que pour les Maronites, mais par ménagement, il crut devoir accorder une part aux Noïairis. Quand il eut fixé cette part : « C'est bien, dit Ismaël, je te la vends cinq mille piastres. » Et le curé Hanna connaissant son homme, eut garde d'oublier cette dette.

Par la brutalité de son gouvernement et les exactions qu'il commettait, Ismaël-beg ne tarda pas à soulever des haines implacables. Pour s'assurer les faveurs du suzerain, il dépensait des sommes considérables, entretenait un agent à Tripoli et un autre à Constantinople. Voulant se mettre à l'abri d'un coup de main, il intrigua pour obtenir le Qal'at al-Hoşon, le fameux Crac des Chevaliers. Cette forteresse, construite par les hospitaliers, se dressait encore presque intacte, dominant la vallée de l'Éleuthère et restant après six siècles la plus solide défense de toute la Syrie. Mais quand le petit potentat reçut de Constantinople sa nomination de « gouverneur du Hoşon avec résidence dans la forteresse », les Musulmans de l'Akkar, jusque-là incertains, s'unirent à ceux du Hoşon pour s'opposer de vive force à cette prise de possession. La question religieuse surgit et força le Gouvernement à refuser à Ismaël-beg la nouvelle investiture. Tout le pays se souleva en deux camps. Des soldats partirent de Damas, et bientôt Tâhir-Pacha prenant le commandement des troupes de Tripoli pénétra pour la seconde fois dans le territoire noïairi (1858). Ismaël-beg s'enfuit à Loqbé : la forteresse qu'il y avait fait construire était inachevée. Il

que le Noïairi venait, il trouvait le loup mangeant les raisins et le chassait. Ceci dura jusqu'à ce que fatigué, il décida de le tuer. Or, tandis qu'il s'apprêtait à le frapper de son arme, le loup lui dit : « Ô un tel, vas-tu tuer ton père parce qu'il prend quelques raisins de la vigne qu'il a fécondée sa vie durant par son travail ? » Le Noïairi surpris d'entendre parler le loup, s'écria : « Qui est mon père ? » Le loup répondit : « Moi, car mon âme a émigré dans cette forme. Ceci est ma vigne que tu as cultivée avec moi. » Le Noïairi se souvint alors que son père avant de mourir avait caché dans la vigne une faucille. Après la mort de son père, il s'était aperçu de la disparition de la faucille, mais il n'avait pu la retrouver. « Si tu dis vrai, cria-t-il au loup, dis-moi où est la faucille avec laquelle nous coupions les sarments de vigne. » Le loup répondit : « Suis-moi, » et se dirigeant vers l'endroit où était la faucille : « La voici, » lui dit-il. Le Noïairi la prit et permit au loup de manger des raisins autant qu'il voudrait.

— Une nuit, on avait volé dans un champ de concombres. Ismaël fit appeler les jeunes gens du village, les examina puis les laissa partir. Il en remarqua deux qui s'enfuirent les premiers, les rappela et les interrogea. L'un jura qu'il n'avait pas mis les pieds dans le champ, l'autre que ses mains n'avaient pas touché les concombres. « C'est ce que je voulais savoir, dit Ismaël. Celui qui a juré n'avoir pas mis les pieds dans le champ est monté sur le dos de l'autre pour arracher les concombres. » Et il fit ferrer le premier comme un cheval et fit clouer l'oreille de l'autre à une porte.

— Une autre fois, on avait dévalisé une boutique en pratiquant un trou dans le mur. Ismaël réunit comme de coutume, les gens du village. « Je vais lire, dit-il, une prière devant le trou et celui qui a volé ne pourra pas y passer. » Puis, quand il eut fini sa prière : « Ce n'est pas la peine, dit-il, le trou vient de me parler : le coupable a de la poussière sur son tarbouch. » Aussitôt il aperçut dans un coin le voleur qui époussetait son tarbouch.

l'interroger. « Si j'ai mangé l'ânesse, répondit la hyène, la faute en est aux gens du village qui n'ont pas voulu recevoir le pauvre et sa bête. »

« Quelle punition dois-je leur infliger? » demanda Ismaël. « Le village devra donner cinq cents piastres au pauvre pour l'ânesse, la jument du chaikh au moqaddam et six cents piastres à chaque homme du moqaddam. » Le village s'exécuta sur l'heure.

En usant de ce stratagème, Ismaël abusait de la croyance des Noïsaïris à la métempsychose. Voici un conte noïsaïri rapporté par un auteur druze qu'il faut en rapprocher, tout en reconnaissant que ce conte n'est peut-être qu'une satire :

— On raconte¹ qu'un certain Noïsaïri possédait une vigne dans laquelle il avait travaillé pendant quelque temps avec son père jusqu'à la mort de celui-ci. On était à l'époque des raisins quand un loup s'installa dans la vigne. Chaque fois

1. Berlin, Biblioth. royale, fonds arabe, ms. 4291, f° 56 v° :

حكى بعضهم ان رجلا نصيريا كان له كرم وكان يعمل في ذلك الكرم زمنا
مع ابيه الى ان مات ابيه وكان ذلك في ايام العنب فتسلط على الكرم ذيب
كلما أتى الرجل يجده يأكل من عنبه فيطرده وما زال الامر كذلك حتى
ضجر منه فعزم على قتله ولما أراد ان يرميه في السلاح قال له يا فلان
أنتقتل اباك اذا تناول شيئا من الكرم الذي أفتى عمره بالعمل فيه فبهت
الرجل لما رأى الذيب ناطقا قال من ابي قال انا وقد انتقلت نفسى الى
هذه الصورة وهذا كرمى الذى كنت تحرق معى فيه قال فذكر الرجل ان
اباه كان قد خبا منجلا في الكرم عند انصرافه في المرة الاخيرة فأضاعها
بعد موت ابيه ولم يعلم اين وضعها فقال للذيب ان كنت صادقا فقل الى
اين المنجل الذى كنتا نقطع به اغصان الكرم فقال اتبعنى ومشى الى المكان
الذى وضعها فيه وقال هذه هى فاخذها الرجل واباح الكرم للذيب يرتع
فيه كما يشاء.

torité sur le Kalbiyyeh, son propre pays, sur le Hoşon, le Qadmoussiyyeh et même les districts du Nord. « On ne doit pas estimer, dit M. Blanche, alors vice-consul de France à Tripoli, à moins de 120.000 âmes la population sur laquelle Ismaël régna en maître absolu, soit à titre régulier soit par tolérance du Gouvernement turc¹. »

On vit se répéter le même phénomène qui avait valu à Râchid ad-din Sinân les honneurs de la divinité. « L'imagination arabe, si avide de merveilleux et déjà si portée à admirer Ismaël, se donna alors libre carrière. On crut à sa puissance illimitée. Chaque jour, de nouveaux traits de sa justice, les uns vrais, les autres faux et tous naturellement embellis, circulaient dans le public². »

Nous avons recueilli quelques-uns de ces contes qui, quarante ans après les événements, jouissent d'une grande vogue dans la montagne. Ceux qui ont lu les contes ismaélis publiés par Stanislas Guyard³ reconnaîtront entre ces deux séries une étroite parenté. Le merveilleux, fait de ruse naïve, qui entourait les moindres actes de Râchid ad-din Sinân se retrouve ici. C'est bien le même cerveau, immobile depuis sept siècles, qui les a conçus, car il ne faut pas oublier que la masse du peuple que gouvernait Râchid ad-din contenait une forte proportion de Noïairis.

— Ismaël n'était encore que moqaddam (chef) de sa tribu, quand les gens d'un bourg refusèrent d'accueillir un voyageur pauvre. Celui-ci n'eût d'autre ressource que de coucher à l'entrée du village près du four auquel il attachait son ânesse. Au matin, l'ânesse avait disparu. Le pauvre voyageur vint se plaindre à Ismaël qui fit appeler le chaikh du village. « C'est la hyène qui l'a dévorée, » prétendit celui-ci. « Retrouve-moi la hyène, » dit Ismaël. On partit en campagne et bientôt on amena la hyène. Ismaël se mit à

1. Blanche, *loc. cit.*, p. 393.

2. Idem, *ibidem*, p. 392.

3. Stan. Guyard, *Un grand maître des Assassins au temps de Saladin*.

peu commune même en Orient, eut vite raison de ces menées indépendantes. Ses troupes exercées et les routes qu'il fit construire aussitôt, lui permirent une action décisive. Il ruina tous les châteaux de l'intérieur et fit trancher la tête aux chefs des Chamsin.

Les troupes égyptiennes parties, les chefs locaux reprirent leurs luttes interminables. En 1847, les Chamsin et les Raslân bouleversèrent le pays. Le Gouvernement turc en profita pour intervenir et une première fois Tâhir-Pacha vint de Homs rétablir l'ordre¹. Il ne put cependant faire reconnaître l'autorité du sultan dans le Nord de la montagne. Le district de Lataquié était complètement indépendant et à Loqbé², en face de Hamâh, un petit chef indigène Ismaël-beg, de la tribu des Matâwarâ, terrorisait la contrée, coupant les routes et arrêtant les caravanes.

En 1854, à la faveur des graves événements qui détournaient vers la Russie et les Balkans l'attention du Gouvernement, les chefs de la montagne reprirent leurs compétitions. Mais aussitôt on vit apparaître Ismaël-beg qui s'installa à Şafita avec quelques centaines d'hommes et s'intitula *muchir de la montagne*. En quelques jours il rétablit l'ordre. Le Gouvernement turc, voulant s'attacher un si habile personnage, le nomma gouverneur du district de Şafita et le reçut en grande pompe à Tripoli et à Beyrouth, où eut lieu la cérémonie de l'investiture. Ismaël-beg fixa sa résidence à Derékich près Şafita. Il prit l'allure du petit monarque oriental, s'entourant d'un faste bizarre, rançonnant ses sujets et enrichissant ses amis. En retour des 300.000 francs de redevances qu'il payait régulièrement au Gouvernement turc, celui-ci lui laissait tout pouvoir. « Sa justice arbitraire et impitoyable frappa de terreur tous ses administrés. Chamsin, Raslân, Khiyâtin, ne songèrent plus qu'à se soumettre humblement aux volontés du nouveau maître³. » Ismaël étendit son au-

1. Catafago, dans *Zeitschrift der deutschen morgenl. Gesellschaft*, t. II, p. 389.

2. C'est le « castellum de Lacoba » des Croisés.

3. Blanche, *Revue européenne*, t. XII, p. 393.

Matâwarâ d'où se détachent les Namliyyeh et les Bochrâwî; les Bait al-A'radj; les Maliḥ, etc. '.

Au début de ce siècle, les Raslân étaient la plus puissante famille noïairî. Ils prétendaient avoir des droits sur Maşyâd, bonne forteresse à l'entrée d'un des meilleurs défilés donnant accès dans la montagne. Les Ismaélis la détenaient et repoussèrent plusieurs attaques. En 1808, deux Noïairis qui s'étaient attachés au service de l'émir ismaéli de Maşyâd, le poignardèrent au jour convenu. Les Noïairis postés en nombre aux abords de la ville, se ruèrent sur les habitants, en massacrèrent un grand nombre, mirent la ville à sac et s'emparèrent de la forteresse. Le pacha de Damas envoya aussitôt une armée de quatre à cinq mille hommes. Les Raslân résistèrent trois mois, puis durent se rendre. Les troupes turques essayèrent de pénétrer plus avant dans le pays, mais « ces sectaires se défendirent courageusement, et les exploits de l'armée turque se bornèrent au pillage et à l'incendie de trois ou quatre de leurs villages; elle fut rappelée aussitôt après ».

Les souvenirs qui subsistent de l'époque suivante sont intéressants à fixer pour l'histoire locale. Les témoignages anciens sont si pauvres qu'il est indispensable de les éclairer et de les compléter par les faits modernes.

A l'arrivée d'Ibrâhim-Pacha en Syrie, en 1832, le Djabal an-Noïairiyyah était gouverné par des chefs locaux qui payaient tribut au pacha de Tripoli. Ces districts avec leurs cultures variées étaient florissants et suscitaient de nombreuses compétitions. Les Raslân voyaient leur autorité diminuer et leurs adversaires, les Chamsîn, dominaient à Şafita. Ceux-ci organisèrent la résistance à l'approche d'Ibrâhim-Pacha. Mais le général égyptien, d'une brutalité

1. Cf. Renan, *Mission de Phénicie*, p. 126; Blanche, *op. cit.* Rousseau, dans *Annales des Voyages*, t. XIV, p. 271 et s.; Hartmann, *Das Lûca et-Ladkije*, dans *Zeitsch. des deut. Pal.-Vereins*, t. XIV, p. 164.

2. Rousseau, consul général de France à Alep, *Mémoire sur les Ismaélis et les Noïairis de Syrie*, dans *Annales des Voyages*, t. XIV, p. 290 et s.; Burckhardt, *Travels in the Syria and the Holy Land*, Londres, 1822, p. 153.

soient au nombre des actions les plus agréables à Dieu et des devoirs les plus sacrés'. » Leur sang et leurs biens sont donc déclarés licites.

Les fanatiques qui avaient trouvés en Ibn Taimiyyah un appui légal ne purent réaliser leurs projets. Les Noïairis n'étaient point des parasites, des réfugiés qu'on pouvait chasser, assimiler ou détruire. C'étaient des indigènes fort utiles aux propriétaires musulmans et les seuls travailleurs de la région. Délivrés des Ismaélis dont les débris se cantonnèrent à Qadmoûs et à Maşyâd, ils menèrent la vie indépendante, la vie de clan telle que nous la retrouvons chez eux au début de ce siècle. La Syrie présente alors un état politique correspondant à l'éloignement du pouvoir central et à la nature physique du sol qui rend les communications difficiles. De même que dans la haute antiquité, à cette époque troublée qui nous est connue par les tablettes de Tell el-Âmarna, le pays se morcelle. De petits potentats s'installent à Acre, Tripoli, Beylan, Payas, Antioche, dans la vallée de l'Oronte comme dans la montagne, se rendent à demi indépendants et soutiennent entre eux des luttes continuelles.

Dans la montagne noïairi, la population est alors divisée en tribus ou *'achîreh* ayant autant le caractère de corporations que celui de familles issues d'une même origine, puisque les Chrétiens et les quelques Musulmans vivant dans le pays peuvent en faire partie'.

Les principales tribus sont les Khîyâtîn, auxquels se rattachent les 'Aidiyyeh, les Foqrâwi et les Halabiyyeh; les Raslân d'où sortent les Nouwâsarâ, les Djahani, les Rach-wâni et les Chamsîn; les Hédâdîn d'où dérivent les Qorhâli, les Yâchoûti, les 'Itâri, les Bachlâwi et les 'Âmoûdi; les

1. Stan. Guyard, *op. cit.*, p. 197.

2. Blanche, *L'Ansarié Kaïr-Beik*, dans *Revue européenne*, t. XII (1860), p. 388. Le mot *'achîreh* et, par suite, le système qu'il représente doit être assez ancien. Les Druzes avaient la même organisation, car ils sont souvent désignés sous le nom de *'Achir* par les écrivains musulmans. Cf. Quatremère, *Hist. des Sultans mamelouks*, t. I, 2^e part., p. 273-274.

la défense de certaines forteresses. Les sectaires orthodoxes retournaient contre eux ces concessions péniblement acquises. Les Noïairis qui survivaient à l'effondrement des Qarmates, des Ismaélis de Perse et de Syrie, supportaient le poids des haines accumulées par ceux-ci. Ibn Taimiyyah les englobe tous dans sa réprobation : « Ces gens ci-dessus décrits et appelés Noïairis, ainsi que les autres branches des Qarmates, sectateurs du sens caché, sont plus infidèles que les Juifs et les Chrétiens, que dis-je, plus infidèles encore que bien des idolâtres. Le mal qu'ils ont fait à la religion de Moïammed est plus grand que celui que font les infidèles belligérants, Turcs, Francs et autres¹. »

Ibn Taimiyyah explique que si les côtes de Syrie sont tombées au pouvoir des Francs, précisément du côté des Noïairis, c'est que ceux-ci en ennemis acharnés des Musulmans se sont joints aux Chrétiens contre eux². C'est certainement une erreur et la forme insidieuse sous laquelle elle est présentée montre que l'accusation est de mauvaise foi. Nous avons vu que les premiers Croisés durent lutter pour s'ouvrir un passage dans la montagne noïairi. Aucun chroniqueur franc ne mentionne l'aide si précieuse que les Noïairis auraient pu apporter aux Croisés. Le témoignage de Burchard de Mont-Sion est formel, il les décrit : « Gens effera et maliciosa et Christianis infesta³. »

Le fatwa publié par Stanislas Guyard, relate l'insuccès de la propagande islamique qui succéda aux victoires de Baibars. Aux questions de savoir s'il est licite aux préfets de leur faire la guerre sainte, si c'est un devoir pour quiconque connaissant leurs pratiques de les dénoncer, d'aider par là à extirper leur absurde croyance et à répandre parmi eux l'islamisme, le savant musulman répond par les plus vifs encouragements. « Il n'y a nul doute, dit-il, que la guerre sainte et les mesures rigoureuses contre les Noïairis, ne

1. Stan. Guyard, *op. cit.*, p. 185-186.

2. Idem, *ibidem*, p. 187.

3. Burchard de Mont-Sion, dans Laurent, *op. cit.*, p. 29.

par eux? Quelle sentence prononcer sur l'emploi de leurs vases et de leurs vêtements? Graves questions sur lesquelles s'épuise la science du Chaikh Taqī ad-dīn ibn Taimiyyah. Certes, les animaux tués par eux sont impurs; mais pour le fromage, les avis diffèrent et la chose est laissée à l'appréciation de chacun.

Ibn Taimiyyah se prononce plus nettement sur les autres questions. Il est illicite de contracter mariage avec de telles gens. Un Musulman ne peut ni cohabiter avec son esclave si elle est Noşairi, ni prendre femme parmi eux. Il n'est pas licite d'enterrer les Noşairis dans les cimetières musulmans, ni de réciter des prières sur leurs corps. Si l'on a confié un poste à des Noşairis ou s'ils remplissent un emploi, il faut les rétribuer suivant la loi du talion.

La position des Noşairis, aux portes de la Syrie soulevait une question fort délicate. Est-il licite de les laisser sur les frontières de l'Islām et de leur en confier la défense? Les employer sur les frontières, dans leurs forteresses et à l'armée, répond le juriste musulman, est une folie semblable à celle qu'on commettrait en se servant de loups pour garder des moutons. « Car ces gens sont les plus traîtres des hommes à l'égard des Musulmans et de leurs chefs, les plus acharnés à la subversion de la religion et de l'État, les plus empressés à livrer les forteresses à nos ennemis. Il est donc du devoir de nos préfets de les rayer du contrôle de l'armée et de ne pas plus s'en servir pour combattre que pour toute autre fonction'. »

Il ressort de ce fatwa que les Noşairis jouaient un rôle important dans la Syrie du Nord. Non seulement ils tiraient parti des ressources agricoles du pays et approvisionnaient les villes de la côte; mais ils s'infiltraient parmi les Musulmans qui prenaient femme chez eux et semblent avoir poussé la tolérance jusqu'à les enterrer dans leurs cimetières. Les Noşairis se glissaient aussi dans les emplois rétribués, dans l'armée, et même on leur confiait

1. Stan. Guyard, *op. cit.*, p. 191.

Ils les força à bâtir des mosquées dans leurs bourgs. Ils en fondèrent, en effet, une pour chaque village, mais loin des habitations. « Ils n'y entrent pas, nous dit Ibn Baṭūṭah, qui parcourut la région vers le milieu du XIV^e siècle, et n'en prennent pas soin. Souvent même leurs troupeaux et leurs bêtes de somme y cherchent un refuge. Bien des fois aussi, il arrive qu'un étranger, qui se rend chez eux, entre dans la mosquée et convoque à la prière. Ils lui répondent alors : « Ne braye pas, ô âne, on te donnera ta pâture ! » Ces gens sont en fort grand nombre¹. »

Nous avons de cette époque une très curieuse décision juridique, le *fatwa* d'Ibn Taimiyyah², qui montre dans quelle inquiétude le rigorisme musulman vainqueur était plongé en face des hérésies noïsaïres : « Cette religion maudite a envahi une grande partie de la Syrie, et ses sectateurs sont connus, célèbres. Ils étalent au grand jour leurs doctrines et quiconque d'entre les hommes intelligents et les savants musulmans s'est mêlé à eux, sait à quoi s'en tenir sur leur compte. Le public lui-même a commencé, dans ces derniers temps seulement, à être instruit de leurs mystères, qui étaient encore gardés secrets au moment où les Francs infidèles s'emparèrent des provinces du littoral. Mais quand revinrent les jours de l'islamisme, on découvrit leurs pratiques et leurs égarements. Depuis, on a trop usé de ménagements à leur égard³. »

Le besoin de régler leur situation se faisait sentir. Les questions que l'on pose à Ibn Taimiyyah marquent le désir bien arrêté d'en finir avec ces mécréants. Ils fournissent de produits divers les villes voisines. Que doit-on décider au sujet des fromages caillés avec la présure d'animaux tués

1. Ibn Baṭūṭah, *Voyages*, trad. Defrémery et Sanguinetti, t. I, p. 177.

2. Sur Ibn Taimiyyah, cf. Goldziher, *Die Zāhiriten*, p. 188-192, et Schreiner, *ZDMG.*, 1898, p. 486 et s. et p. 540 et s. Ibn Taimiyyah est né à Harrân, le 12 de Rabi' I^{er} de l'an 661 de l'hégire. Il vécut à Damas où il acquit rapidement une grande réputation de science et de piété.

3. Stan. Guyard, *Le Fetwa d'Ibn Taimiyyah sur les Noïsaïres*, texte et traduit. dans *Journal asiatique*, 6^e sér., t. XVIII, p. 183.

notablement de leur doctrine et ayant conservé tout le fonds des vieilles pratiques. Les Ismaélis furent réduits à négocier l'achat des forteresses¹, fiefs d'émirs musulmans, ou à s'en emparer de vive force, malgré la résistance des Noïairis².

L'importance que les *Assassins* et leur chef le *Vieux de la Montagne* prennent dès cette époque aux yeux des Francs, explique que les chroniqueurs et pèlerins occidentaux aient négligé à leur profit les Noïairis. Jacques de Vitry seul en parle avec quelques détails, d'ailleurs inexacts³. Albéric de Trois-Fontaines les cite sous le nom de *Nossorite*⁴. Burchard de Mont-Sion les appelle *Uannini*, sans qu'on puisse expliquer l'origine de ce mot⁵.

La puissance ismaéli, un instant si menaçante, disparut au XIII^e siècle, détruite en Perse par les Mongols, et en Syrie par Baibars. Les forteresses d'al-Khawâbi, d'Ollaiqah, de Maniqah, etc., furent perdues pour la secte. Baibars voulut profiter de sa victoire pour convertir les Noïairis à l'Islâm⁶.

1. Ils achetèrent d'Ibn 'Amroûn, Qadmoûs, le premier point qu'ils occupèrent (cf. *Histor. orientaux*, t. I, p. 21 et 400), et peut-être al-Kahf, forteresse voisine.

2. Cf. le conte ismaéli cité plus haut, p. 23, n. 2.

3. Jacques de Vitry, éd. Bongars, p. 1062. Nous citerons et discuterons plus loin le passage.

4. Albéric de Trois-Fontaines, dans Pertz, *Monument. Germ. Hist.*, SS., t. XXIII, p. 935. Nous aurons occasion de revenir sur ce texte.

5. L'identification des Uannini de Burchard (car. : Uanni, Vauni, Chani) avec les Noïairis n'est pas douteuse. Burchard en parle à deux reprises : « Circa Arachas castrum post Tripolim usque ad castrum Krach habitant Sarraceni, qui dicuntur Uannini. Illis junguntur quidam Sarraceni, qui dicuntur Assissini; ultra Anteradum prope castrum Margath habitantes in montanis » (Laurent, *Peregrinatores medii ævi quatuor*, p. 90). Plus haut, après avoir décrit la vaste plaine où l'Éleuthère a son embouchure, il ajoute : « Planiciem illam circumdant quedam montana ob oriente, non multum alta, que incipiunt juxta Arachas et protenduntur usque in Krach. In hiis montanis habitant quidam, qui dicuntur Uannini, gens effera et maliciosa et Christianis infesta » (Laurent, *ibid.*, p. 29).

6. D'après Maqrîzi, ce fait se renouvela en l'an 717 de l'hégire (*Kitâb as-Souloûk*). Cf. Quatremère, *Mémoires de l'Orient*, t. IV, p. 724. Le sultan interdit en même temps les initiations à la secte.

blissement de la dynastie fatimide fut l'œuvre des Ismaélis et la secte eut bientôt l'Égypte comme foyer le plus intense. De là sortit la religion druze, réforme de la religion ismaélienne au profit du khalife Hâkim Biamrillâh, devenu une incarnation divine. En Perse, dans la seconde moitié du XI^e siècle, les Ismaélis très nombreux prirent une attitude menaçante et s'emparèrent de la forteresse d'Alamout. Leur puissance leur valait la protection de nombreux princes dans toute l'étendue du monde musulman. Ce mouvement aussi politique que religieux, qui bouleversait l'Islâm et dont une des caractéristiques était de grouper les mécontents, les opprimés, tous ceux qui dans le secret de leur âme n'acceptaient pas la religion des khalifes, ne pouvait laisser indifférents les Noïairis.

Nous trouvons la preuve dans les écrits des Druzes que la religion noïairi était déjà constituée au commencement du XI^e siècle de notre ère, et qu'elle était distincte de la doctrine ismaéli. Hamza, l'apôtre de la religion druze, réfute un traité noïairi contenant tous les principes de la secte. Cette lutte religieuse est antérieure de plus d'un siècle à l'établissement des Ismaélis à Qadmoûs et à Al-Kahf¹.

L'influence ismaéli avait été d'autant plus prompte, que le chef de la secte au IX^e siècle, 'Abdallâh, fils de Maimoun, et ses fils qui lui succédèrent, s'étaient réfugiés à Salamiyyah près de Hamâh, à une journée de marche du pays noïairi. Si plus tard, les sectateurs ismaélis vinrent chercher un point d'appui dans la montagne noïairi, c'est qu'ils la connaissaient pour l'avoir parcourue au cours de leur propagande.

Toutefois, ils ne pouvaient plus y être accueillis avec sympathie. La religion noïairi s'était constituée, s'écartant

1. Il est fait mention des Noïairis dans deux écrits druzes. L'un, réfutation de leur doctrine, par Hamza, est attribué par Silv. de Sacy à l'an 409 de l'hégire, et en tout cas ne peut être de beaucoup plus tardif. L'autre, traité de Bahâ-addîn appelé encore Moktana, de peu postérieur, cite les Noïairis parmi les sectes chi'ites. Cf. Silv. de Sacy, *Exposé de la Relig. des Druzes*, p. CCCCLXXI; p. 568 et s.; p. 682, n. 2.

d'eux qu'ils se prosternassent devant lui et l'adorassent; ce qu'ils firent sans difficulté. Il leur permit l'usage du vin, supprima les prières et annonça ouvertement qu'il n'y avait d'autre Dieu qu'Ali dont Moḥammed était le Voile. Des étendards rouges flottaient devant lui, et il avait un grand cierge que l'on tenait allumé pendant le jour. Celui qui le portait était un jeune homme encore imberbe, que cet imposteur voulait faire passer pour Ibrâhîm ibn Adham¹, qu'il prétendait avoir ressuscité. Il donna à son frère le nom de Miqdâd ibn Aswad Kendi² et à un autre le nom de Gabriel. Il disait à celui-ci : « Monte vers Dieu, c'est-à-dire Ali ibn Abi Tâlib, et consulte-le sur telle et telle chose. » Cet homme sortait aussitôt, disparaissait pour quelques instants, puis revenait lui dire : « Fais ce que tu jugeras convenable. » Cet imposteur ayant surpris la ville de Djabalah, le vendredi 20^e jour du mois de Dhôu al-Hidjdjah, égorga beaucoup de monde et emmena un grand nombre de prisonniers, professa hautement ses dogmes impies et chargea de malédictions Abou-Bekr et Omar. Cependant, le gouvernement de Tripoli fit marcher contre lui un corps de mille cavaliers. Il les attendit de pied ferme, et combattit vaillamment, jusqu'à ce qu'il tomba mort. Sa révolte n'avait duré que cinq jours. »

Si le contact qui s'établit forcément entre une importante fraction des Noïairis et les Ismaélis fut un des événements qui ont le plus troublé la région, ce serait une erreur de ne rapporter qu'au milieu du XII^e siècle (les Ismaélis s'établirent dans la région en 1132-1133) l'infiltration des doctrines ismaéliennes chez les Noïairis. Ces doctrines avaient été formulées et réunies en corps dès le IX^e siècle par Abdallâh, fils de Maimoun, et propagées aussitôt par d'actifs missionnaires³. Vers 887 de notre ère, se convertit Hamdân, surnommé le Qarmaṭ, qui fonda la puissante secte des Qarmaṭes. L'éta-

1. Le fameux saint musulman enterré à Djabalah.

2. Un des cinq *Incomparables* des Noïairis.

3. Stan. Guyard, *Un grand maître des Assassins du temps de Saladin*, p. 4-13.

et tuèrent à volonté les agresseurs. La nouvelle de ce fait étant parvenue à Lâdhiqiyyah, son gouverneur, Bahâdir 'Abd Allâh, s'avança avec ses troupes. Les pigeons messagers furent aussi lâchés vers Tripoli avec cette nouvelle, et le chef des émirs survint, accompagné de son armée. On poursuivit alors de tous côtés ces Noïairis, et on en tua environ vingt mille. Ceux qui survécurent se fortifièrent dans les montagnes et firent savoir au prince des émirs qu'ils s'engageaient à lui payer un dinâr par tête, s'il voulait bien les épargner. Mais la nouvelle de ces événements avait déjà été expédiée à Al-Malik, an-Nâsir au moyen des pigeons voyageurs, et sa réponse arriva, portant de passer ces ennemis au fil de l'épée. Le prince des émirs réclama près de lui, et lui présenta que ces peuples labouraient la terre pour les Musulmans, et que, s'ils étaient tués, les fidèles en seraient nécessairement affaiblis. Al-Malik an-Nâsir ordonna alors de les épargner¹. »

C'est probablement le même événement que nous conte Maqrizi², en y ajoutant des détails intéressants : « L'an 717 de l'hégire (donc, sous le sultan mamloûk al-Nâsir Moḥammad), on vit apparaître un imposteur, natif du bourg de Qar-ṭiâwous³, dans le canton de Djabalah, et qui se faisait passer pour Moḥammed ibn Ḥasan al-Mahdi. Il prétendait que, tandis qu'il était occupé à labourer la terre, un oiseau blanc s'était approché de lui, et que, lui ayant percé le côté, il avait fait sortir son âme, à la place de laquelle il avait introduit l'âme de Moḥammed ibn Ḥasan⁴. Cet homme réunit autour de lui environ cinq mille d'entre les Noïairis, hérétiques qui croient à la divinité d'Ali ibn Abi Ṭâlib. Il exigea

1. Ibn Baṭṭūṭah, *Voyages*, traduit. Defrémery et Sanguinetti, t. I, p. 178-179, où nous ne changeons que quelques mots.

2. *Kitâb as-Soutloûk*, t. I, p. 721, traduit. Quatremère, dans *Mines de l'Orient*, t. IV, p. 375.

3. قرية قرطياوس.

4. Ceci n'a de sens que grâce à la croyance des Noïairis à la métempsychose. L'imposteur était alors une réincarnation du 12^e imâm des Chî'ites dont ceux-ci attendaient le retour comme *mahdi*.

en leur pouvoir en 1126. Ils ne purent s'y maintenir et se rejetèrent dans le Djabal an-Noşairiyyah, où la défense était plus facile. C'est là qu'ils s'illustrèrent sous le nom d'*Assassins* et nos chroniqueurs ont popularisé leur chef, le Chaikh al-Djabal, sous le nom du « Vieux de la Montagne ». La secte s'empara d'abord (1132-33) de Qadmoûs et de Kahf; huit ans après de Maşyâd; puis de Roşâfah et Qâhir près de Maşyâd, d'Ollaiqah et Maniqah près de Marqab, de Marqab même peut-être, d'al-Khawâbi et d'al-Qolai'ah¹.

Les Noşairis furent obligés de subir cette invasion. Si le plus grand nombre montra envers les Ismaélis une haine irréductible², qui a laissé des traces jusqu'à nos jours et a empêché toute fusion, d'autres cherchèrent à tirer profit de cet élément nouveau. En particulier, l'éclat que le nom d'un chef ismaéli, Râchid ad-dîn Sinân, répandait au dehors, amena beaucoup de Noşairis à embrasser sa cause. Un conte ismaéli nous montre tout un clan s'enrôlant dans les compagnies de Râchid ad-dîn à Maşyâd³. Ce chef fameux semble avoir suscité des imitateurs parmi les Noşairis, et le pays fut en proie aux agitations les plus bizarres. On vit, par exemple, apparaître un *mahdi* qui entraînait ces populations simples contre les villes musulmanes les plus proches. « Il leur prescrivit de prendre des baguettes de myrte, au lieu de sabres, et il leur promit qu'elles deviendraient des glaives entre leurs mains, au moment du combat. Ils tombèrent sur la ville de Djabalah, pendant que les habitants étaient occupés à faire, dans la mosquée, la prière du vendredi. Ils entrèrent dans les maisons et violèrent les femmes. Les fidèles sortirent de leur mosquée, prirent les armes

1. Cf. Defrémery, *Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens ou Bathéniens de Syrie*, 1837.

2. Cf. le conte ismaéli, Stan. Guyard, *Un grand maître des Assassins au temps de Saladin*, extrait du *Journal asiatique*, Paris, 1877, p. 114-115 du tirage à part : « Or, dit l'auteur du conte, on sait que les Noşairis sont les ennemis du seigneur Râchid ad-dîn, » et l'histoire le prouve.

3. Stan. Guyard, *ibidem*, p. 124-127. Nous reproduisons ce conte plus loin.

tianis infesta », comme dira deux siècles plus tard le moine Burchard de Mont-Sion¹, — cherchèrent à l'arrêter, mais Raymond en vint facilement à bout et n'eut pas de peine à les mettre en fuite. L'anonyme des *Gesta Francorum* insiste sur les ressources qu'offrait le pays et qui furent d'un grand secours à l'armée franque.

Dans la suite, Qal'at al-Hoşon, Şafita, 'Oraimah, Marqab, 'Ollaiqah, Maniqah, Şahyoûn, Qoşair (Cursat), Choghr-Bakâs, Bokebeis, Bârin, etc., c'est-à-dire toute la ceinture de places fortes du Djabal an-Noşairiyyah, tombèrent au pouvoir des Francs ou acceptèrent leur suzeraineté. Tan-crède s'empara même du château de Bikisrâ'il en pleine montagne et dirigea de là des incursions dans le pays de Chaizar².

Plus tard, Salâh ad-dîn lança aussi ses troupes dans la montagne. Quand il se fut emparé de Djabalah (juillet 1188), les chefs Noşairis vinrent le trouver pour faire leur soumission. Il fit occuper Bikisrâ'il pour assurer les communications entre Djabalah et Hamâh par un chemin, il est vrai, fort pénible. « Cette montagne, dit à ce sujet Ibn al-'Athîr, est au nombre des plus âpres et des plus difficiles à traverser³. » Après la conquête de Laodicée, Salâh ad-dîn s'empara de Şahyoûn, de 'Aid, de Djamahartin, de Balâtonos, de Choghr-Bakâs. Les Noşairis devinrent ainsi les sujets du sultan d'Égypte.

Entre temps était survenu un événement d'une importance capitale. Au commencement du XII^e siècle, la secte des Ismaélis, déjà puissante et dont les chefs avaient longtemps séjourné à Salamiyyah près de Hamâh, cherchait, dans le désordre apporté en Syrie par l'invasion franque, à s'emparer de quelque forteresse. Bâniyâs près de Damas, tomba

(ou Desen, peut-être Hesen = Hişn), c'est la Bouqai'ah dominée par le château : Hişn al-Akrâd, aujourd'hui Qal'at al-Hoşon, mentionné même page : Hic prope nos erat quoddam castrum.

1. Éd. Laurent, p. 29.

2. Kamâl ad-dîn, *Historiens orient. des Crois.*, t. III, p. 599.

3. Ibn al-'Athîr, *Hist. orient.*, t. I, p. 719. Cf. Chihâb ad-dîn, *Kitâb ar-Ranâtain*, t. II, p. 127.

touna au temps de Ramsès II. Mariamin, qui domine l'Oronte, fut occupé par les Égyptiens et les Phéniciens. Şahyoûn, fort repaire d'où l'on peut couper la route entre Lataquié (Laodicée) et Alep, appartient successivement aux Phéniciens (Σαῦν d'Arrien), aux Byzantins, aux Croisés, enfin aux Musulmans¹. Mais les textes qui mentionnent ces places fortes sont muets sur les Noïairis. Il nous faut arriver à la fin du XI^e siècle pour les trouver cités dans un récit de la première croisade.

Après Antioche, les Francs s'étaient emparés de Ma'arrâh où ils séjournèrent jusqu'au début de l'année 1099. « De là ils vinrent à la montagne du Liban où ils tuèrent un grand nombre de gens, de ceux qu'on appelle Noïairis. Puis ils allèrent assiéger 'Arqah et la région de Tripoli². » Dans cette marche, l'armée franque suivit en sens inverse la route qu'avait prise Titus en allant d'Arqah à Raphanée, route très importante dans l'antiquité et notée sur la table de Peutinger³. Après avoir passé l'Oronte à gué près de Chaizar, Raymond, comte de Saint-Gilles, qui commandait cette troupe, gagna sans doute Hamâh. Prudemment, il évita Homş, l'ancienne Émèse, puissante agglomération arabe, et poussa vers l'Ouest, probablement jusqu'à Maşyâd. De là, il arriva à Raphanée dont les habitants s'enfuirent, et il s'engagea « per altam et immensam montaneam », le Djabal an-Noïairiyyah. Il déboucha ainsi dans la vallée appelée al-Bouqai'ah, au pied de Ḥiṣn al-Akrâd (le futur Crac des Chevaliers), s'en empara et alla mettre le siège devant 'Arqah⁴. Les Noïairis, — « gens effera et maliciosa et Chris-

1. Cf. *Revue archéologique*, 1897, I, p. 305-357.

2. Bar-Hebraeus, *Chron. syr.*, p. 281, et Bernstein, *Chrestom.*, p. 56.

3. Josèphe, *De Bello jud.*, VII, 5, 1. Cf. *Revue archéol.*, 1897, I, p. 318.

4. Récit très précis dans *Anonymi Gesta Francorum et al. Hierosol.*, éd. H. Hagenmeyer, 1890, p. 413-423. P. 413, Marra = Ma'arrâh an-No'mân; p. 414, Capharda = Kafarṭâb; p. 415, Cesarea = Chaizar; p. 415, fluvius Farfar = Oronte; p. 417, in vallem quandam subter quoddam castrum = peut-être Hamâh; p. 418, pervenimus gaudentes hospitari ad quoddam Arabum castrum = peut-être Maşyâd; p. 418, Kephalia, ou mieux Rephalia = Raphanée; p. 419, in vallem Desem

sanctuaires phéniciens, — ainsi ceux de Bortocécé et de Marathus, — ne possédaient en fait d'espace couvert, qu'un petit édicule servant à renfermer les objets du culte.

Le paganisme se maintint aussi, — et plus longtemps que chez les Nošairis, — dans une contrée voisine, chez les habitants de Harrân. La résistance au christianisme y fut organisée par une école philosophique célèbre¹, dont le rôle, malheureusement fort obscur, dut être très actif lors du renouveau des doctrines anciennes que signala le succès de l'ismaélisme. Les documents qui nous sont parvenus sur les cultes de Harrân nous seront fort utiles pour établir des rapprochements entre les cultes nošairis actuels et les anciens cultes syro-phéniciens.

A part le fait de leur non-conversion au christianisme, la période byzantine ne nous offre aucun renseignement intéressant les Nošairis. Au VII^e siècle, les Arabes font irruption en Syrie, s'emparent des grandes villes, occupent la vallée de l'Oronte et la côte, mais ne semblent pas avoir pénétré dans la montagne.

Le conquérant byzantin ou arabe, comme jadis les Égyptiens et les Assyriens, comme plus tard les Croisés, s'est toujours contenté de l'occupation de certains points stratégiques qui assuraient sa domination morale et la sécurité des routes². Qal'at al-Hoşon qui bat la vallée de l'Éleuthère, était déjà une forte position sous le nom de Chab-

il n'y a point de sanctuaires semblables à ceux des Musulmans et des Chrétiens, si ce n'est qu'ils se réunissent à certaines époques dans des maisons désignées par eux, et cette réunion prend le nom de 'Id. »

والنصيرية ليس لهم معابد مثل الاسلام والنصارى بل انهم في كل مدة يجتمعون في بيوت معلومة لهم وهذا الجمع يستونه عيد.

1. Cf. la page éloquent de d'Aboûlhasan conservée par Bar-Hebraeus, *Chron. syr.*, p. 176-177.

2. L'historique et la description de ces places fortes n'entrent point dans le sujet de ce travail, puisqu'elles ne furent ni construites, ni occupées par les Nošairis. Elles formeront, avec la côte dont elles ne sont que des dépendances, l'objet d'une étude spéciale, intitulée : « La Phénicie du Nord. »

La victoire du christianisme en Syrie n'alla pas sans une vive résistance. Beaucoup ne cédèrent qu'à la terreur, devant l'effondrement des temples et la destruction des statues divines. Le paganisme se maintint jusqu'en plein moyen âge¹. Les Noşairis, dans leurs montagnes, furent à l'abri des persécutions. Seuls, quelques-uns de leurs bourgs, comme Mariamin, placés aux confins de la plaine, ne purent résister à l'invasion du christianisme. Ceci nous explique l'absence complète, dans ces montagnes, d'églises au style caractéristique des V^e, VI^e et VII^e siècles, qu'on rencontre à profusion dans le reste de la Syrie². Aujourd'hui encore, les Noşairis s'assemblent à certains jours autour d'une *qoubbah*, d'une *ziyarah*, ils n'ont point de lieux de culte en commun, comparables aux synagogues, aux églises, aux mosquées³. Ils conservent en cela de vieilles coutumes. Les

descendre des Israélites et font de Samarie un centre important pour leur doctrine, mais nulle part ils ne s'appellent Galiléens. Le rapprochement avec les prétendus chrétiens de saint Jean a été inspiré par certaine cérémonie que nous décrivons, dans laquelle les ablutions jouent un rôle.

1. Cf. *Archives de l'Orient latin*, t. II, 2, p. 375.

2. Le R. P. Lammens, *Les Noşairis*, extrait des *Études religieuses*, 1899, p. 10 et s., a. par contre, « été frappé de l'abondance des ruines chrétiennes ». Cela s'explique, le P. Lammens n'ayant parcouru que la région méridionale, les environs de Şafta, place qui fut occupée par les Byzantins et les Croisés. « Pas de localité ancienne où l'on ne rencontre les ruines d'une église, » dit le P. Lammens. On aimerait à préciser, car les trois points cités sont précisément en lisière du domaine chrétien. Ce que nous pouvons affirmer, c'est que l'intérieur du pays n'offre pas un seul reste chrétien intéressant. Si, comme le croit le Père Lammens, *op. cit.*, p. 10, n. 2, les Noşairis s'étaient convertis au christianisme au début du V^e siècle, le pays serait couvert de ruines d'églises. Les missions envoyées par saint Jean Chrysostome (Amédée Thierry, *Recue des Deux-Mondes*, juin 1869, p. 845-846 et janvier 1870, p. 52-56) ont parfaitement réussi dans le Djabal Riha, le Djabal 'Alâ, le Djabal Sem'an, aussi ces régions fourmillent-elles littéralement de ruines grecques chrétiennes des V^e, VI^e et VII^e siècles, et pour qui a vu cette extraordinaire floraison d'art chrétien, — point de départ de ce que nous appelons l'art byzantin, — la comparaison n'est pas seulement instructive, mais décisive. Cf. de Vogüé, *Syrie centrale, architecture civile et relig. du I^{er} au VII^e siècle*, Paris, 1865, 2 vol.

3. Berlin, Bibliothèque royale, ms. 4291, f^o 56 : « Chez les Noşairis,

celui de Nazaréen, ce qui leur vaut l'appellation de Galiléens que nous retrouvons chez les géographes arabes, mais sous une autre forme. Les hauteurs situées en face de Homs, particulièrement celles qui portent le Hîṣn al-Akrād (le Crac des Chevaliers), sont appelées par eux Djabal al-Djalil'. Yāqoût, qui n'en connaît pas la raison, prétend que ces montagnes sont une prolongation des monts de Galilée'. Bien que cette appellation n'ait pas pénétré chez les Noïairis, le souvenir s'en est perpétué jusqu'en ce siècle'. Il n'y a pas lieu de s'y arrêter.

1. Aboulféda, éd. Reinaud et de Slane, p. 259. Yāqoût, *Mou'djam*, t. II, p. 276. Adh-Dhāhirl, éd. Ravaisse, p. 48, confirme indirectement ce fait: Après Ṣahyoûn, Qal'at al-Marqab, Hîṣn al-Akrād, Qal'at Qadmouṣ, Lādhiqiyyah, Djabalah, 'Arqah, Hîṣn 'Akkar, il cite Hîṣn Djalil, « qui est inexpugnable et sans territoire; c'est aussi une dépendance de Tripoli », puis il continue par al-Kahf, ar-Roṣāfah (الروافه), à corriger en (الرصاص).

2. Yāqoût, *Mou'djam*, t. II, p. 110.

3. On lit à l'article : Saint Jean-Baptiste du *Dictionnaire universel, historique et comparatif de toutes les religions du monde*, de l'abbé Bertrand, à propos des Mandaites dits Nazaréens ou chrétiens de saint Jean : « Il y a encore une peuplade qui, chassée par les Turcs des environs de Jérusalem et de Tibériade, est venue se réfugier à el-Morkab, à l'est du mont Liban, où leur postérité subsiste jusqu'à présent. Ils s'appellent eux-mêmes Galiléens, et ne sont ni juifs ni chrétiens; mais, d'après une ancienne tradition, ils honorent saint Jean. »

Cette notice a été inspirée — cf. aussi Sprenger à la bibliographie — par une note de Germanus Conti, vicaire du patriarche maronite, que Norberg (*Codex Nasareus*, Londres, 1815, t. I, p. vi, n. 16) a publiée et traduite. Voici le passage principal :

في ارض القدس موجود ناس الجليلين (الجليل : sans doute) اصحاب بضعة ولهم نحو مائة وخمسون سنة تفارقوا من بلاد المذكر وتوجهوا الى بلاد الرقب الذي هو ناحية في نواحي جبل لبنان واستقاموا هناك الى يومنا هذا واستمروا في ديانتهم وهو خصوصية يتتلوا في سيرة مار يحنّا المعدادي وما هم يهود ولا نصارى بل ديانتهم هي ما بين الاثنين.

On remarque une détermination plus exacte d'al-Marqab. Nous voyons aussi que dans les milieux maronites on tenait les Noïairis pour des émigrés de Galilée. Ils ont pu aider à cette légende, puisqu'ils prétendent

II

LES NOŞAIRIS DEPUIS L'ÉPOQUE ROMAINE JUSQU'À NOS JOURS

Avant l'époque romaine, l'histoire des Noşairis nous échappe : elle se confond avec celle des Phéniciens de la côte. Au I^{er} siècle de notre ère, les Noşairis sont groupés en une tétrarchie, ce qui indique un certain degré d'indépendance vis-à-vis de la côte phénicienne. La puissance d'Arad avait fortement décliné. Laodicée et Séleucie supplantèrent son port. Cependant, les Aradiens possédaient encore une grande partie du sol dans la montagne noşairi¹.

Cette semi-indépendance permit aux Noşairis de conserver leur foi en dépit du christianisme triomphant. Les franchises confirmées au sanctuaire de Bortocécé par les empereurs romains, attestent que les cultes syro-phéniciens s'y pratiquaient encore avec éclat au IV^e siècle². Non seulement ce temple, plus heureux que celui d'Aphaca, échappa à la destruction, mais on vit, vers la fin du IV^e siècle, les Noşairis descendre de leurs montagnes et prêter main-forte aux païens d'Apamée, dans leur lutte contre les chrétiens³. Dès cette époque se fait jour la confusion de leur nom avec

1. Strabon, XVI, 2, 14.

2. Waddington, *Inscriptions grecques de Syrie*, n° 2720 a.

3. Sozomène, VII, 15. Le texte (éd. Migne) porte: Πολλοί τε Γαλιλαίων ἀνδρῶν, καὶ τῶν περὶ τὸν Λίβανον κομῶν. Il est inadmissible que des Galiléens, des chrétiens aient réclamé contre l'évêque d'Apamée le maintien des idoles. Il s'agit certainement des Noşairis ou Nazerini, confondus par Sozomène avec les Nazaréens. Il faut comprendre : Πολλοί τε Ναζιρηνῶν (Noşairis) ἀνδρῶν τῶν περὶ τὸν Λίβανον κομῶν. On appelait communément Liban, à cette époque, toute la montagne qui longe la côte depuis Sidon jusqu'à Antioche. Ce texte fournit une importante confirmation de celui de Pline sur les Nazerini.

méthode anthropométrique, telle que la pratiquent les anthropologues, qui nous paraît condamnable. Quand les mensurations présentent des écarts notables, — et c'est le cas ici, — il n'est point juste de prendre la moyenne et d'en faire état. Dans la recherche d'une loi, on ne prend la moyenne d'une série de mesures que pour faire disparaître ou atténuer les erreurs d'expérience. Ici, les divergences ne sont pas dues aux erreurs d'expérience, elles montrent simplement qu'il n'y a pas *loi*. De plus, dans le cas présent, comment peut-on reconnaître, — eu égard à l'évolution et aux croisements, — la parenté de deux peuples qui « se seraient séparés de bonne heure » du tronc commun ?

Nous serons donc forcés, pour remonter dans la connaissance des Noşairís plus haut que le texte de Pline, de nous baser uniquement sur des considérations historiques et religieuses.

Il y a là une objection assez grave à l'identification proposée du pays d'Alachiya avec le pays des Noïairis¹. On sait d'ailleurs, par un texte fort intéressant dont M. Golénischeff² a donné un court résumé, que le pays d'Alachiya était un pays côtier. Or, toute la côte du pays des Noïairis était occupée par une série de villes bien connues : 'Arqah, Simyra, Arwada, etc., qui forcent tout au moins à repousser jusque vers l'embouchure de l'Oronte, le pays d'Alachiya.

Jusqu'à présent nous ne possédons pas de texte qui nous renseigne sur les Noïairis au delà de l'ère chrétienne. M. E. Chantre a essayé de définir la position des Noïairis au point de vue anthropologique. Comme caractères généraux et constants, il a reconnu : 1° une taille moyenne de 1^m 68 chez les hommes et de 1^m 61 chez les femmes ; 2° ils sont bien musclés et vigoureux ; 3° généralement, ils sont brachycéphales. Un grand nombre présentent sur la tête des traces de compression antéro-postérieure, produite par la compression lente et constante d'un bandage. Une autre déformation plus fréquente encore est celle de la partie gauche de l'occipital. Cette disposition est très commune chez les Syriens actuels et chez les anciens Phéniciens. Elle semble provenir de la façon dont les enfants sont fixés dans leur berceau³.

Où nous ne pouvons plus suivre M. Chantre, c'est quand il pousse ses conclusions et admet que « les Kurdes et les Ansariés formeraient deux rameaux de cette race iranienne, dont ils se seraient séparés de bonne heure⁴ ». M. Chantre fait d'ailleurs des réserves sur ces conclusions, les observations ayant été trop peu nombreuses. Il faut remarquer aussi qu'elles n'ont été pratiquées qu'à Antioche où, de tout temps, la population a reçu des apports arméniens et kurdes. Mais, en dehors de ces critiques de détail, c'est la

1. Maspero, *Histoire des peuples de l'Orient classique*, t. II, p. 583.

2. *Recueil de Textes*, t. XV, p. 88. Cf. Max Müller, *Asien und Europa*, p. 261 et 394.

3. E. Chantre, *Archives des Missions scient. et litt.*, 1883, p. 227.

4. E. Chantre, *loc. cit.*, p. 236.

d'origine. Ce sont des ramifications lointaines du noyau compact de Syrie obtenues soit par émigration, soit par conversion. L'activité des missionnaires noïairis est attestée par les écrits druzes et par le fait qu'ils entraînent à un certain moment la population de Homs à embrasser leur doctrine. Les derniers doutes sur l'habitat des Noïairis seront levés par un passage de Pline. Énumérant les villes de la Cœlé-Syrie, il cite « Apamée séparée par le fleuve Marsyas (Oronte) de la tétrarchie des Nazerini¹ ». On ne peut mieux préciser le territoire noïairi dont *Nazerini* transcrit exactement le nom². Le témoignage de Pline, — confirmé comme nous le verrons plus loin, par Sozomène, — est précieux à recueillir, car Pline est bien renseigné sur la région. Il nous fournit le nom ancien des monts noïairis : mons Bargylus³.

Dès lors, le nom de Noïairi est bien antérieur à Moḥammed ibn Noïair, antérieur aussi à l'appellation de Nazaréen = chrétien. Il ne désigne pas une secte musulmane quelconque, mais un peuple dont la première mention historique nous reporte au début de notre ère, à une époque où florissaient, dans cette région, les cultes syro-phéniciens. La présence en plein pays noïairi de deux grands sanctuaires, la source sabbatique et Bortocécé, prouve l'influence des Phéniciens d'Arad qui avaient occupé le pays bien avant l'arrivée d'Alexandre en Syrie⁴. Cette occupation assurait la sécurité des routes à leur commerce avec la vallée de l'Oronte et la Mésopotamie.

1. Pline, *Hist. Nat.*, V, 81 : « Cœle habet Apameam Marsya amne divisam a Nazerinorum tetrarchia. »

2. La transcription de Pline est excellente. On a l'exemple tout à fait parallèle de Naṣrāni = Nazaréen. Le P. Lammens, *Les Noïairis*, dans *Études religieuses*, 1899, p. 6, n. 1, du tirage à part, met en doute le témoignage de Pline et se demande s'il n'y a pas une confusion avec des hérétiques nazaréens. Pline est formel : il ne parle pas d'une secte, mais d'une province, et il la place là où sont aujourd'hui les Noïairis.

3. Pline, *Hist. Nat.*, V, 78.

4. C'est ce que nous avons montré dans *Revue archéologique*, 1897, t. I, p. 316 et 337-338.

bien s'entendre d'un mandaitte. Cette confusion a été faite plusieurs fois, en particulier par Sprenger¹. Le récit d'Aboulfaradj sur l'origine des Noïairis, absolument inutilisable, a cependant un intérêt, c'est de nous prouver que les Noïairis ne sont pas d'anciens chrétiens. S'il avait eu le moindre indice à ce sujet, le célèbre évêque d'Alep n'eût pas manqué de le noter.

Pour que la série des légendes étymologiques soit complète, il nous faut citer, malgré son absurdité, l'opinion qui rattache les Noïairis aux Anṣārs du Prophète : « Originellement le mot *noṣairiyyah* était un diminutif d'un mot *noṣārah*. Son singulier est *noṣairi*. Cette secte, primitivement, était une des tribus du pays de Hidjāz ; elle fit son apparition au temps de la révélation du prophète Moḥammed². »

Ce qui a pu contribuer à accréditer l'origine mésopotamienne des Noïairis en tant que peuple, c'est que leur présence est signalée par les géographes arabes dans la région du bas Euphrate. Ainsi à Ḥadīthah, près d'Anbar. Cette ville, bâtie sur une île au milieu de l'Euphrate, avec une bonne forteresse, était sur le chemin qui conduit de Syrie en Perse³. Le pays entre Wāsīt et Baṣrah comptait aussi des Noïairis⁴.

Mais ces points isolés ne sauraient constituer une patrie

1. Sprenger, *Das Leben und die Lehre des Moḥammed*, t. I, p. 38 et 42. Cf. la Bibliographie.

2. Bibl. Nat., Fonds arabe, ms. 1685 :

أزلا اللفظة نصيرية تصغير لفظ نصاره ومردها نصيري... فهذه الطائفة اصلا من قبائل بلاد الحجاز فحصل عليهم اظهار (اطهاران : ms.) اياما ظهور الرسول محمد.

3. Yāqūt, *Mou'djam*, éd. Wüstenfeld, t. II, p. 223. Un voyageur revenant de Syrie voulut se reposer dans la ville. Mais quand on sut qu'il s'appelait 'Omar, les gens du lieu faillirent le tuer. Il ne put se sauver qu'en protestant qu'il était partisan d'Alī. Les Noïairis ont en effet une haine violente contre Aboū Bekr, 'Omar et 'Othman.

4. Yāqūt, *Mou'djam*, t. III, p. 275. Nous y reviendrons plus loin.

Il ne faut donc pas être surpris si les Noïairis prétendent avoir émigré de Mésopotamie¹. Aboulfaradj semble confirmer ce dernier point : « Comme beaucoup de personnes, dit-il, désirent savoir qui sont les Noïairis (voici leur histoire). En l'année 1202 des Grecs (270 de l'hégire, 891 de J.-C.), parut dans le territoire d'Akoula (c'est-à-dire de Koufa) dans un bourg nommé *Našaria*, un homme d'un âge très avancé, qui jeûnait et priait beaucoup, et affectait une extrême pauvreté. Un grand nombre d'habitants de ce lieu s'attachèrent à lui, etc.². » Dans son histoire des Dynasties, Aboulfaradj rapporte identiquement le même récit au sujet de l'origine des Qarmates, et, dans ce cas, Aboulféda vient à l'appui de son témoignage³. Aboulfaradj a été entraîné par le rapprochement onomastique entre Noïairi et *Našaria*. Peut-être même a-t-il confondu les Noïairis avec les Mandaïtes (מנדאיות), et « l'homme de *Našaria*⁴ » pourrait

qualifié d'al-'Abdi. Soleimân, *Al-bâkoûrah*, p. 19, dans son commentaire de la sourate 4 du Kitâb al-madjmoû', dit que la religion noïairi fut instituée par Moïammed ibn Noïair, à qui succéda Moïammed ibn Djindab, puis 'Abdallah al-Djannân al-Djanbulân, puis al-Hosain ibn Hamdân al-Khošaihl que les Noïairis considèrent comme supérieur à tous ses prédécesseurs et qui accommoda leurs prières et les répandit. Dans la sourate 11 (*Al-bâkoûrah*, p. 27), on lit : « J'atteste que je suis Noïairi de religion, Djandabi de vues, Djanbulani de voies, Khošaihl de doctrine, Djalt de maximes. Maimouni en science légale. »

1. D'après une tradition orale, ils seraient venus du Sindjar. Cette tradition leur est commune avec d'autres populations de Syrie, comme les habitants du district de Ma'loula. Cf. Parisot, *Le Dialecte de Ma'loula*, p. 32 (extr. du *Journal asiatique*, 1898).

2. Greg. Aboulfaradj, *Chron. syr.*, t. I, 173. Cf. Assemani, *Biblioth. Orient.*, t. II, p. 318. Nous empruntons la traduction de ce passage à Silv. de Sacy, *Exposé de la Religion des Druzes*, t. II, p. 562.

3. Cf. Silv. de Sacy, *Exposé*, t. II, p. 566.

4. Actuellement, d'après Siouffi, *Études sur la Religion des Soubbas ou Sabéens*, 1880, p. 158 et s., les Mandaïtes habitent plus particulièrement les environs de Baṣorah. Il est intéressant d'y relever un village que Siouffi orthographe : Nasseriya, évidemment *Našaria*. Mais cette localité est différente de celle mentionnée par Aboulfaradj dans les environs de Koufa. Il est cependant à présumer qu'après la ruine de Koufa, les Mandaïtes, qui sont d'habiles artisans, se sont transportés dans les environs de Baṣorah et ont donné au nouveau village le nom de l'ancien.

reaux : l'homme qu'on lui ramène est bien le fellah. Par trois fois on recommence l'exécution et par trois fois s'accomplit cette merveilleuse transfiguration d'Aḥmed al-Bannâ en Yâzid. Devant la perplexité de son maître à la recherche d'un nouveau supplice, le wîzir se décide à parler : « J'ai 115 ans, dit-il au khalife, et pendant 80 ans je suis resté sans enfant. Celui que j'ai est unique, prends-le à la place de cet homme. » Mou'âwiyyah accepte, heureux de se tirer d'un mauvais pas. Malgré le désespoir de la mère, on saisit le fils du wîzir et on le jette dans le feu. Quand son corps fut consumé, Mou'âwiyyah dit au wîzir : « Prends cet homme à la place. » Et le wîzir emmena Aḥmed al-Bannâ. Peu après, Djibrâ'il apparut à Noşair et lui dit : « Puisque tu as livré ton fils unique pour sauver un Noşairi, tu auras un autre fils qui sera chef de tous les Noşairis. » Le wîzir rapporta cette parole à sa femme qui se réjouit. Ce fils fut Moḥammed ibn Noşair.

On reconnaît le thème habituel de la naissance de l'enfant privilégié, — héros éponyme et chef religieux, — accordé à un père très âgé, comme signe particulier de la sollicitude divine¹. Ce conte, dont la morale est que tous les Noşairis sont frères, a été imaginé sur l'étymologie fantaisiste des auteurs arabes. En l'acceptant, on a oublié de remarquer que Moḥammed ibn Noşair, partisan du onzième Imâm des Chi'ites, ne pouvait avoir institué un système religieux dérivé de la doctrine ismaéli qui arrêta à sept le nombre des Imâms. Le rapprochement onomastique est de même valeur que celui des Yézidis, se prétendant issus de Yâzid, fils de Mou'âwiyyah². Une autre tradition rattache les Noşairis à Noşair, l'affranchi d'Ali ibn Abi Tâlib³.

1. Naissances d'Isaac, Samson, Samuel, saint Jean-Baptiste.

2. J.-B. Chabot, dans *Journal asiatique*, 1896, I, p. 120. Ils prétendent aussi que Yâzid est né d'une vieille femme de 80 ans. Le P. Anastase, *Les Yézidis*, dans *Al-Machriq*, t. II, p. 33.

3. « Ibn Sa'îd dit qu'au nombre des endroits connus est la montagne des Noşairis, sectaires dont on attribue l'origine à Noşair, un affranchi d'Ali ibn Abi Tâlib. » Cf. Aboulféda, *Géogr.*, trad. Reinaud et St. Guyard, t. II, p. 11, n. 7. Ce rapprochement s'explique, car ibn Noşair est

ismaéliens; aussi offre-t-elle avec cette dernière secte des analogies qui ont trompé les auteurs musulmans au point de les faire conclure à une identité complète. Loin de là, il existait entre les ismaéliens et les noïsaïris une haine séculaire qui n'est point éteinte encore¹ ». M. Clément Huart partage cette opinion. Après avoir cité le passage du Kitâb al-Bâkoûrah, qui relate cette origine, M. Clément Huart conclut : « Il n'y a plus de doute possible : c'est d'Ibn Noïsaïr que les Noïsaïris ont pris leur nom². » Les Noïsaïris ont en effet adopté la théorie des auteurs arabes, mais la légende populaire, qui a conservé le souvenir des grandes luttes au temps d'Ali, transporte Mohammed ibn Noïsaïr au VII^e siècle et fait de son père le bon wîzir du cruel Mou'âwîyyah. La voici, telle que nous l'avons recueillie :

Le khalife Mou'âwîyyah avait pour wîzir un certain Noïsaïr, de religion noïsaïri. Un jour, on amène devant le khalife qui tenait conseil, un Noïsaïri, Aḥmed al-Bannâ, qui ne voulait pas renoncer à sa religion. Mou'âwîyyah, ignorant les sentiments de son wîzir³, ordonne qu'on jette le fellah⁴ dans le feu. La sentence est exécutée sur-le-champ. Or, tandis qu'on approche du bûcher, on s'aperçoit que ce n'est plus le Noïsaïri qu'on mène au supplice, mais Yâzîd, le propre fils de Mou'âwîyyah. Le khalife arrête les bour-

1. Stan. Guyard, *Un grand maître des Assassins au temps de Saladin*, extr. du *Journal asiatique*, p. 28-29 du tirage à part, Paris, 1877. Pour l'intelligence des pages citées, il faut signaler la confusion de Panéas, non loin de Damas, avec Banias (Balannée), près de Marqab, et l'identification fautive des monts Sommaq avec les monts Noïsaïris. Le district d'Es-Sommaq est bien placé dans la carte de M. Rey, immédiatement à l'ouest de Qinnésrin, entre Edlip et Alep. L'erreur première est imputable à Rousseau, *Mémoire sur les Ismaélis*, dans *Annales des Voyages*, t. XIV, p. 271, et elle a fait fortune.

2. Clément Huart, *La Poésie religieuse des Noïsaïris*, dans *Journal asiatique*, 7^e sér., t. XIV, p. 199. Le R. P. Lammens, *Les Noïsaïris*, extr. des *Études religieuses*, 1899, p. 6 et s., défend encore cette opinion.

3. En vertu du caractère secret de la secte.

4. Le terme de *fellah* (paysan) est d'usage constant chez les Noïsaïris pour désigner l'un des leurs, même si celui-ci est commerçant dans une ville.

Cela ne prouverait d'ailleurs rien pour l'objet en question.

Deux hypothèses plus plausibles ont été émises. La première déduit *Nošairi* de l'arabe *našrānī*, chrétien. Nošairi serait un diminutif : petit chrétien. C'était en particulier l'opinion de Renan¹. Cette hypothèse ne s'appuie sur aucun texte formel. Elle suppose la conversion des Nošairis au christianisme, et nous montrerons que cette conversion ne s'est pas produite. Si tel était le sens de *nošairī*, le célèbre évêque d'Alep au XIII^e siècle, Aboulfaradj, nous l'eût certainement signalé, car il s'est préoccupé de rechercher l'origine de ce peuple. Sans faire état d'un argument décisif fourni par Plin^e et sur lequel nous reviendrons, nous remarquerons qu'il faudrait, en tout cas, placer la conversion des Nošairis au christianisme avant l'invasion arabe, et dès lors il est étrange de tirer le nom des Nošairis de la forme arabe *našrānī*. En somme, dire que Nošairi = petit chrétien, c'est tomber dans une erreur aussi grave que Mariti prétendant que *Yézidi* dérive de Jésuite et signifie disciple de Jésus².

L'opinion la plus répandue et universellement adoptée dans les milieux scientifiques est que l'appellation de *Nošairi* provient de Moḥammed ibn Nošair. La religion des Nošairis fut « fondée, dit Stanislas Guyard, l'auteur le plus autorisé, comme la secte ismaélienne, à la fin du IX^e siècle, par un partisan (Moḥammed ibn Nošair) du onzième imām des schiites, Hasan el-'Askari, lequel résidait à Sourmanra, près de Baghdād. La religion nošairienne avait donc une origine semblable à celle des

surnoms donnés à des indigènes par les étrangers. Ainsi la famille Ibrins (prince) de Tripoli et la famille si particulièrement estimée des Bambino.

1. Renan, *Mission de Phénicie*, p. 114.

2. Mariti, *Memorie storiche del popolo degli Assassini et del recchio della montagna*, Livourne, 1807, p. 41. Avant la correction des épreuves, nous recevons le tirage à part des *Nošairis* du R. P. Lammens, extrait des *Études religieuses*, 1899. Le savant arabisant est d'accord avec nous sur ce point : « Il faut, dit-il, p. 3, renoncer à l'étymologie de « petits chrétiens », étymologie contraire aux règles de la grammaire arabe comme aux traditions nationales de cette secte syrienne. »

Ces indices sont bien faibles¹, et ils ne peuvent être valables en dehors des faits historiques. On peut dire cependant que la facilité avec laquelle on distingue le type noïairi des types syriens et arabes, vient à l'encontre de l'hypothèse. Il est aisé de vérifier, encore aujourd'hui, combien le sang indigène prend immédiatement le dessus dans les croisements avec les Européens. Le poulain, — c'est ainsi qu'on nommait le produit au moyen âge, — devient un véritable indigène si son éducation n'est pas des plus soignées. Il ne faut pas oublier que les Francs, jusqu'au dernier, furent chassés de Syrie à la fin du XIII^e siècle. La postérité qu'ils ont pu laisser dans les montagnes noïairis, au cours d'une domination éphémère, a certainement disparu de nos jours, et quant aux noms propres qu'on prétend s'être maintenus, la vérification n'en a pas été faite de façon décisive¹.

1. Il y a là une part d'illusion qu'a relevée M. E. Chantre, *Archives des Missions scient. et litt.*, 1883, p. 228 : « Les voyageurs qui ont vu des Ansariés avant moi, et ils sont nombreux, ont dit qu'ils étaient généralement blonds avec des yeux bleus; cette affirmation me paraît exagérée pour ceux que j'ai étudiés. Sur 48 sujets, 6 seulement ont les cheveux blonds. Quant aux yeux, 4 seulement les ont bleus. »

2. Des conclusions du même genre ont été tirées pour les Druzes qu'on a regardés comme les descendants égarés d'un comte de Dreux à l'époque des Croisades. Cette filiation fut sans doute le fait d'un diplomate facétieux, car elle servit à faire reconnaître les Druzes comme protégés français. Cf. Discours de M. P. David, ancien consul général de France en Orient, dans *Moniteur Universel*, séance de la Chambre des Députés du 30 janvier 1843. Michaud et Poujoulat, *Correspondance d'Orient*, t. VII, p. 331 : « Le fameux émir druze, Fakhr ad-din, pour se faire des partisans et jeter une sorte d'éclat sur le berceau de sa nation, avait cru devoir accréditer ces idées; il avait même songé à écrire la généalogie de sa race et se disait issu de Godéfrroi de Bouillon. » Niebuhr, *Voyage en Arabie*, trad. fr., Amsterd. et Utrecht, 1780, t. II, p. 348, — et avant lui, Puget de Saint-Pierre, *Histoire des Druses*, Paris, 1763, p. 2 et 3, — avait déjà remarqué l'impossibilité de cette légende, puisque Benjamin de Tudèle fait mention des Druzes. — M. Hartmann a annoncé qu'il s'occuperait des noms de famille d'origine franque en Syrie. Dans son étude, *Das Livan el-Ladkije und die Nahije Urdu*, ZDPV., t. XIV, p. 230, il ne relève qu'un nom, *beit esh-Shamboûr*, en se demandant s'il ne vient pas de Chambord. — Les seuls noms de famille que nous connaissions en Syrie, comme étant d'origine franque, proviennent de

et en y ajoutant les Noïairis installés à Mersina, Adhana et Tarsous, on arrive facilement à 150,000. La densité est très faible, puisque, de toutes les sectes et populations sédentaires de la Syrie, les Noïairis occupent le territoire le plus étendu¹. Nul doute qu'en des temps plus prospères ce chiffre fut décuple.

Les Noïairis sont des fellah, des paysans, et habitent peu les villes. A part Antioche, qui en compte un grand nombre, Djisr ach-Choghr sur l'Oronte qu'ils peuplent presque entièrement et Lataquié, ils se groupent en villages et en hameaux. Comme conséquence immédiate, leur instruction reste des plus rudimentaires. Chez les non initiés à la religion, elle fait absolument défaut. Les missionnaires américains, et surtout le missionnaire Lyde, essayèrent d'installer des écoles. Quelques-unes fonctionnent encore dans le pays, mais la grande école de Lataquié se désintéresse complètement de la population qui fut son but.

L'origine des Noïairis est obscure. On les a représentés comme le produit d'un croisement d'indigènes avec les Francs aux XII^e et XIII^e siècles, en s'appuyant sur ce que le Noïairi, aussi différent du Syrien de la côte que de l'Arabe de l'intérieur, est souvent d'un teint clair. D'autre part, on a cru reconnaître dans certains noms propres des survivances de noms francs.

on trouve 120,000 âmes. Mais il faut remarquer que cet auteur ne donne aucun chiffre pour les Noïairis habitant Hamâh et le qaḍa de Hamidiyyéh (Dair ach-Chamâl). Par contre, il compte dans cette contrée un assez grand nombre de Druzes (10,000 dans le qaḍa de Hamidiyyéh et 2,000 dans le merkez-qaḍa de Hamâh). Il y a là une erreur : il n'y a pas de Druzes dans cette région. Sous ce vocable, il faut entendre les Ismaélites et les Noïairis qui manquent à cette statistique. Les deux populations étant en nombre sensiblement égal en ces points, on arrive au chiffre de 130,000. — A. von Kremer, *Die Heidentumsgemeinden der Nosairyer*, dans *Das Ausland*, 1872, p. 553-558, évalue leur nombre de 120,000 à 180,000. — Petermann, *Reisen im Orient*, t. II, compte 28,000 Noïairis dans le pachalik d'Alep et 4,500 à Antioche même.

1. La part qu'Élisée Reclus, *Géographie*, t. IX, *Asie antérieure*, p. 750, attribue aux Noïairis dans sa carte des populations de Syrie est fort réduite. Elle est, en réalité, presque triple de celle indiquée.

c'est qu'ils font beaucoup de bon vin et qu'ils sont de grands buveurs¹. »

Une culture plus récente, mais non moins importante, est celle du tabac. Avant l'établissement de la régie ottomane, elle constituait une des principales richesses du pays. On l'exportait en grande quantité en Égypte². Les indigènes distinguent deux qualités, l'*abou rihan* et le *chaikh al-bint*. Poujoulat nous donne quelques détails sur la préparation : « Le tabac de Latakié, si doux, si parfumé, le meilleur et le plus célèbre d'Orient, est cultivé dans les montagnes voisines habitées par les Ansariyès. Cette peuplade vend tous les ans pour cinq à six cent mille piastres de tabac. Les Ansariyès donnent à leur *toutoun* la suave odeur et la couleur noire qui le distinguent, en brûlant d'un bois nommé hezez ; ils suspendent le toutoun en feuilles au plancher de leurs cabanes, et ces feuilles se parfument et se brunissent par la fumée du hezez³. »

Il est impossible d'évaluer avec exactitude la population noïairi. Le nombre officiel, — toujours un minimum en Orient, par le soin que les populations mettent à se dérober au service militaire et aux taxes personnelles, — est de 130,000 âmes pour la Syrie⁴. En forçant un peu ce nombre

1. Henri Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem*, Utrecht, 1705, p. 20.

2. Savary, *Lettres sur l'Égypte*, 2^e éd., 1786, t. I, p. 137 : « Le tabac dont on fait usage en Égypte vient de Syrie. » F. Walpole, *The Ansariyè*, t. I, p. 55 : « The chief export from here (Latakié) is tobacco, for which it is famous ; it now exports about 3,000 quintals yearly ; the greater portion to Egypt. » Petermann, *Reisen im Orient*, t. I, p. 315-316 et n.

3. Michaud et Poujoulat, *Correspondance d'Orient*, t. VI, p. 443. Cf. Niebuhr, *Voyage en Arabie*, t. II, p. 357.

4. Le missionnaire américain Van Dyck estime dans sa géographie arabe à 112,350 le nombre des Noïairis. A savoir, district d'Akkar : 3,500 ; district de Safita : 25,160 ; sandjak de Latakié : 75,000 ; montagnes à l'est de l'Oronte : 3,750 ; district voisin ar-Roudj : 5,000. Cf. Petkowitch, *Les Ansariyès et leurs croyances religieuses* (en russe), Saint-Petersbourg, 1889, p. 9-10. Mais il ne compte pas la forte agglomération d'Antioche. — M. Petkowitch, *op. cit.*, donne le chiffre de 130,000. — En additionnant les chiffres donnés par M. Cuinet pour la population noïairi de Syrie (cf. *Turquie d'Asie*, t. II, et *Syrie, Liban et Palestine*),

d'ar-Roudj et dans les montagnes voisines à l'est de l'Oronte, particulièrement le Djabal al-'Alà'. Baghdad en renfermerait aussi quelques centaines, mais ce point est encore à éclaircir. Nous avons réfuté dans la Bibliographie l'opinion de M. de Gobineau, qui prétend que les deux cinquièmes de la population persane sont des Noïairis.

Le climat du Djabal an-Noïairiyyah est sain. Il participe du climat général de Syrie; mais la chaleur y est moins forte que sur la côte. On y retrouve les cultures habituelles au bassin de la Méditerranée : les céréales, le coton, le sésame, l'oignon, la réglisse, le tabac, le mûrier, l'olivier, le figuier, la vigne, l'oranger, le citronnier, les arbres fruitiers. On rencontre de nombreuses essences : pin, chêne, platane, etc. On y élève le buffle, le bœuf, le mouton, la chèvre, le cheval, l'âne et le mulet. Les œufs donnent lieu, depuis quelques années à un trafic important.

La vigne et le tabac fournissent des produits particulièrement estimés. Le Sahyoûn produit les raisins les plus renommés. Strabon décrit cette contrée : « Laodicée, dit-il, possède un territoire particulièrement riche en vignes parmi d'autres productions. Elle fournit à la ville d'Alexandrie la plus grande partie de son vin. Les montagnes, au delà de la ville¹, sont entièrement couvertes de vignes presque jusqu'au sommet. Ces sommets sont très éloignés de Laodicée, la montée étant douce de ce côté; mais ils dominent Apamée, la montagne y tombant à pic². » Si grâce à l'incurie turque, — bien plus qu'aux préceptes du Qoran, — l'industrie du vin est morte aujourd'hui, Maundrell, à la fin du XVII^e siècle, la trouva encore florissante. « Tout ce qu'il y a de certain à leur égard, dit-il en parlant des Noïairis,

1. Cf. Rousseau, *Notice sur la carte générale des paschaliks de Baghdad, etc.*, p. 16.

2. Et non pas « au-dessus de la ville », comme traduit M. A. Tardieu, *Géogr. de Strabon*, t. III, p. 327, ce qui ne correspond pas aux conditions topographiques de la contrée. Laodicée est au milieu d'une vaste plaine.

3. Strabon, XVI, 2, 9.

grecque ont une tendance à refouler les Noïairis vers le Nord. Ce fait est surtout sensible à Šafita où la famille Bachour (Syriens de religion grecque, originaires de Beyrout) dominait complètement il y a quelques années.

Les travaux de la moisson font descendre les Noïairis dans la vallée de l'Oronte, jusque dans la Biqa'. Ils ont quelques villages dans l'ouest du lac de Homs', et Robinson en a signalé une agglomération près de Panéas au sud du Wādī at-Taim'. Ce dernier renseignement est intéressant, car joint à la mention qu'Ibn Qadi Chohbah fait des Noïairis dans cette région au milieu du XIV^e siècle', il témoigne de l'extension de cette secte vers le Sud par la trouée de la Biqa', en plein pays druze. Il nous explique la lutte religieuse qui mit aux prises Noïairis et Druzes, et dont le souvenir est conservé par les écrits de ces derniers. On compte encore des Noïairis près de l'Oronte dans le district

1. Sachau, *Reise in Syrien und Mesopotamien*, p. 56-57.

2. Van Kasteren, *Liftāja*, dans *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, t. XVI (1893), p. 184.

3. Robinson, *Palästina*, t. III, p. 607 et 887, et *Neuere Biblische Forschungen in Palästina*, Berlin, 1857, p. 511; Seetzen, *Reisen*, t. I, p. 325-326, et t. IV, p. 154-155; G. Schumacher, *The Jaulan*, p. 76 et 272. Ce sont les villages de al-Ghadjar, de Za'ourā et 'Ain-Fīt. Confirmé par le ms. druze, 4291, f^o 55 v^o, de la Bibliothèque royale de Berlin : « Les Noïairis habitent en Syrie les montagnes appelées de leur nom dans le district d'al-Ladhiqiyyah, Tripoli, Hamāh. On en trouve un grand nombre dans la ville de Damas, à aš-Šalahiyyeh et dans les trois villages du district d'al-Hoūleh faisant suite à celui d'al-Qoneiṭra et qui sont : 'Ain-Fīt, Za'ourā et al-Ghadjar. »

النصيرية في سورية يسكنون الجبال المسماة باسمهم في جبال اللاذقية وطرابلس وحماه ويوجد منهم كثير بمدينة دمشق والصالحية وفي ثلاثة قرى من مقاطعة الحولة تابع القنيطرة (sic) وهي عينيت وزعورا والنجر.

4. Bibliothèque Nationale, fonds arabe, ms. 1598, fol. 63 v^o et 64 r^o. Cité par Quatremère, *Histoire des Sultans mamloûks*, t. II, 1^{re} partie, p. 258 : « L'autre se montra dans la province de Biqa', parmi la population de cette contrée, et celle du Wādī at-Taim. On apporta des livres qui avaient été pillés sur les ennemis, et qui renfermaient des principes d'athéisme et les dogmes des Noïairis. » En 745 de l'Hégire. Cf. Ibn Férat, ap. Quatremère, *Mines de l'Orient*, t. IV, p. 349.

où les Noïairis, pressurés par l'agha musulman, diminuent de plus en plus. On en retrouve une forte agglomération à Antioche¹, où ils se signalent par leur industrie et une aisance relative. Le contraste est frappant. Tandis que dans les districts montagneux, le Noïairi, que l'inutilité du travail a rendu paresseux et ignorant, vit d'une récolte précaire et de rapines plus sûres, à Antioche, il devient propriétaire, commerçant, apte à tous les métiers, presque riche. Il a fondé à Mersina, Tarsous, Adhana, des colonies prospères¹.

Il faut signaler dans le domaine noïairi, tel que nous l'avons délimité, quelques villages arméniens autour du Casius et, en plein Djabal an-Noïairiyyah, les restes des anciens Ismaélis peuplant Qadmous, Mašiyad et leurs environs. Les Noïairis au sud de l'Éleuthère sont aujourd'hui en petit nombre; ils étaient plus nombreux il y a quarante ans¹. Les Maronites du Liban et les Syriens de religion

1. Dans la région d'Antioche que connaît bien Soleïmân, il signale dans son *Kitâb al-Bakôûrah*, p. 56, comme étant particulièrement habités par les Noïairis les villages de Ad-Dersouniyyéh (قرية الدرسونية), près de Bait al-mâ (Daphné); An-Nahr as-Seghr (النهر الصغير), qui est l'agglomération de la vallée du nahr Qaratchai as-seghr. Cf. la liste d'Hartmann, *Zeitsch. der Gesellsch. für Erdkunde*, t. XXIX, p. 511; al-Djilliyyéh (الجلیة), sur la rive gauche de l'Oronte, près de l'embouchure, village rendu célèbre par le Chaikh Ibrahim al-Djillî. Cf. Hartmann, *l. c.*, p. 158-159 et 513. Soleïmân cite encore as-Souweidiyyéh (السويدية), ensemble de fermes entre l'ancienne Séleucie et l'Oronte; enfin al-'Aidiyyéh (العیدية), à environ 6 kilom. au nord d'Antioche.

2. Leur présence en ces points est signalée par Victor Langlois, *Revue d'Orient et d'Algérie*, nouvelle série, t. III (1856), p. 431-437, et antérieurement (1843), par *Kitâb al-Moqtarib*, Biblioth. Nat., fonds arabe, ms. 1685, f° 32: « La secte des Noïairis se rencontre maintenant dans le district de Lataquié, à Antioche et son district, à Tarsous, à Adhana et dans les deux districts de Homs et de Hamâh, etc. » Soleïmân, l'auteur du précieux *Kitâb al-Bakôûrah*, était originaire d'Adhana. Cf. aussi Favre et Mandrot, *Voyage en Cilicie*, 1874, dans *Bullet. de la Société de Géogr.*, janvier 1878, p. 19.

3. Cf. Renan, *Mission de Phénicie*, p. 124.

souvent appelés Ansariés¹, — d'où le nom de Djabal an-Noṣairiyyah, plus spécialement attribué aux régions centrale et méridionale². On est dans le Djabal an-Noṣairiyyah depuis l'Éleuthère jusque vers Ṣahyoûn. Le coin qui s'enfonce entre le Nahr al-Kébir du Nord³ et l'Oronte, prend le nom de Djabal al-Akrâd, en souvenir des Kurdes qui y dominant encore. Au nord de ce Nahr al-Kébir jusqu'à l'Oronte, s'étend un vaste canton fertile, le Djabal al-Qoṣair

1. De ces deux appellations la première est seule correcte, comme l'a montré M. Clément Huart, *Journal asiatique*, 7^e série, t. XIV, p. 199-200, et seule, elle se trouve dans les textes. Mais la seconde est d'un emploi général chez les Européens établis en Syrie. Volney ne fut pas le premier à l'employer. — la carte de de L'Isle (Paris, 1764) porte *Enseyriens*, — mais il la popularisa. Voici comment M. Huart explique la formation de ce mot : « L'auteur du *Voyage en Égypte et en Syrie* a été abusé par la prononciation vulgaire qui fait presque disparaître le damma de la première lettre (N'ṣairiyyéh), surtout pour une oreille peu exercée; puis, à son insu, un *a* prosthétique est venu se glisser devant le mot ainsi entendu, et voilà comment le nom d'Ansariés a été créé, nom qui, je le répète, a toujours été absolument inconnu des Orientaux. » Il y aurait peut-être encore une autre explication, en tenant compte de l'influence de l'article, ainsi Djabal an-Noṣairiyyé a pu être transcrit Djabal Anṣairiyyé. Un grand nombre de mots ont été formés ainsi : alcool, Alger, etc. On ne peut expliquer autrement la transcription que le D^r Morpurg donne dans sa lettre à Seetzen (*Mines de l'Orient*, t. I, p. 82-83), quand il cite les *Gebirge der Anasserie* et la *Religion der Anasséiry*. C'est ainsi que M. Max van Berchem, *Recherches archéologiques en Syrie*, p. 25, n. (extr. de *Journ. asiat.*, 1895, II), écrit : Djabal Ansâriyyah. Seul, Éli Smith (Robinson, *Palästina*, t. III, n. 2) donne formellement comme employée dans le dialecte vulgaire la forme al-Anṣairiyyé, الانصيرية. Nous ne l'avons jamais rencontrée, même dans les textes les plus récents. M. P. Savoye, consul de France à Damas, bien placé pour en juger dans ses postes antérieurs à Homs et Tripoli de Syrie, veut bien nous confirmer que ce terme est absolument étranger aux indigènes. Il note, comme M. Cl. Huart, le peu de consistance du damma de la première syllabe.

2. Les plus anciens géographes arabes qui font mention du Djabal an-Noṣairiyyah sont Ibn Sa'îd, dans Aboulféda, *Géographie*, éd. Reinaud et de Slane, p. 232, et Dimachqî, *Cosmographie*, p. 208.

3. Il faut distinguer deux Nahr al-Kébir en Syrie. L'un est l'ancien Éleuthère, l'autre plus au Nord, dont on ignore le nom ancien, a son embouchure un peu au-dessous de Latakié (Laodicée). C'est de ce dernier dont il est question ici.

HISTOIRE ET RELIGION

DES

NOSAIRÎS

PREMIÈRE PARTIE

HISTOIRE DES NOSAIRÎS

I

L'HABITAT DES NOSAIRÎS. — LEUR ORIGINE

La chaîne de montagnes qu'on appelle le Liban, s'arrête au Nord à la vallée du Nahr al-Kébir (l'ancien Éleuthère), large trouée qui fait communiquer la côte avec la plaine de Homs et les pays qu'arrose l'Oronte. Au delà du Nahr al-Kébir, les collines reprennent en masse serrée, d'une hauteur moyenne de 900 mètres, sans plaine ni haut plateau. Elles s'étendent jusqu'à Antioche où une brusque dépression les limite et laisse passage à l'Oronte. Le massif du Casius s'y rattache au Nord-Ouest.

La contrée montagneuse, ainsi enclavée au Sud par l'ancien Éleuthère, à l'Est et au Nord par l'Oronte, à l'Ouest par la côte, est presque uniquement peuplée de Nosairîs, —

۲۶.

AVANT-PROPOS

La religion des Noçairis reste assez ignorée, bien que Soleimán-efendi en ait présenté aux arabisants, dès 1863, un exposé détaillé. Il nous a paru utile de reprendre le sujet en contrôlant et complétant les renseignements de Soleimán-efendi par ceux que nous fournissent les manuscrits noçairis de Paris et de Berlin, et par des indications prises sur place au cours de plusieurs voyages dans la Syrie du Nord.

Ayant assuré les bases de la religion noçairi, nous avons cherché à déterminer les influences sous lesquelles elle s'est développée. Comme d'autre part, nous établissions que les Noçairis uniquement considérés jusqu'ici comme une secte, étaient aussi un peuple installé depuis longtemps dans le pays, nous avons dû rechercher à quel groupe religieux se rattachait ce peuple, avant la transformation d'où est sortie la religion actuelle. Les documents sur les religions syriennes antérieures au christianisme ou ayant vécu en dehors de lui sont si rares qu'on ne peut négliger les survivances très nettes conservées chez les Noçairis. Sans oser nous flatter d'avoir mis cette population à son rang parmi les multiples sectes syriennes de tous les temps, nous avons voulu signaler son rôle politique et religieux.

Cette étude se divise en deux parties : Histoire et Religion. On trouvera en tête, la Bibliographie et en appendice le texte et la traduction des seize chapitres du livre religieux par excellence des Noçairis : le *Kitâb al-madjmou'*.

HISTOIRE ET RELIGION

DES

N O S A I R Î S

PAR

RENÉ DUSSAUD



PARIS

LIBRAIRIE ÉMILE BOUILLON, ÉDITEUR

67, RUE DE RICHELIEU, AU PREMIER

1900

—

(TOUS DROITS RÉSERVÉS)